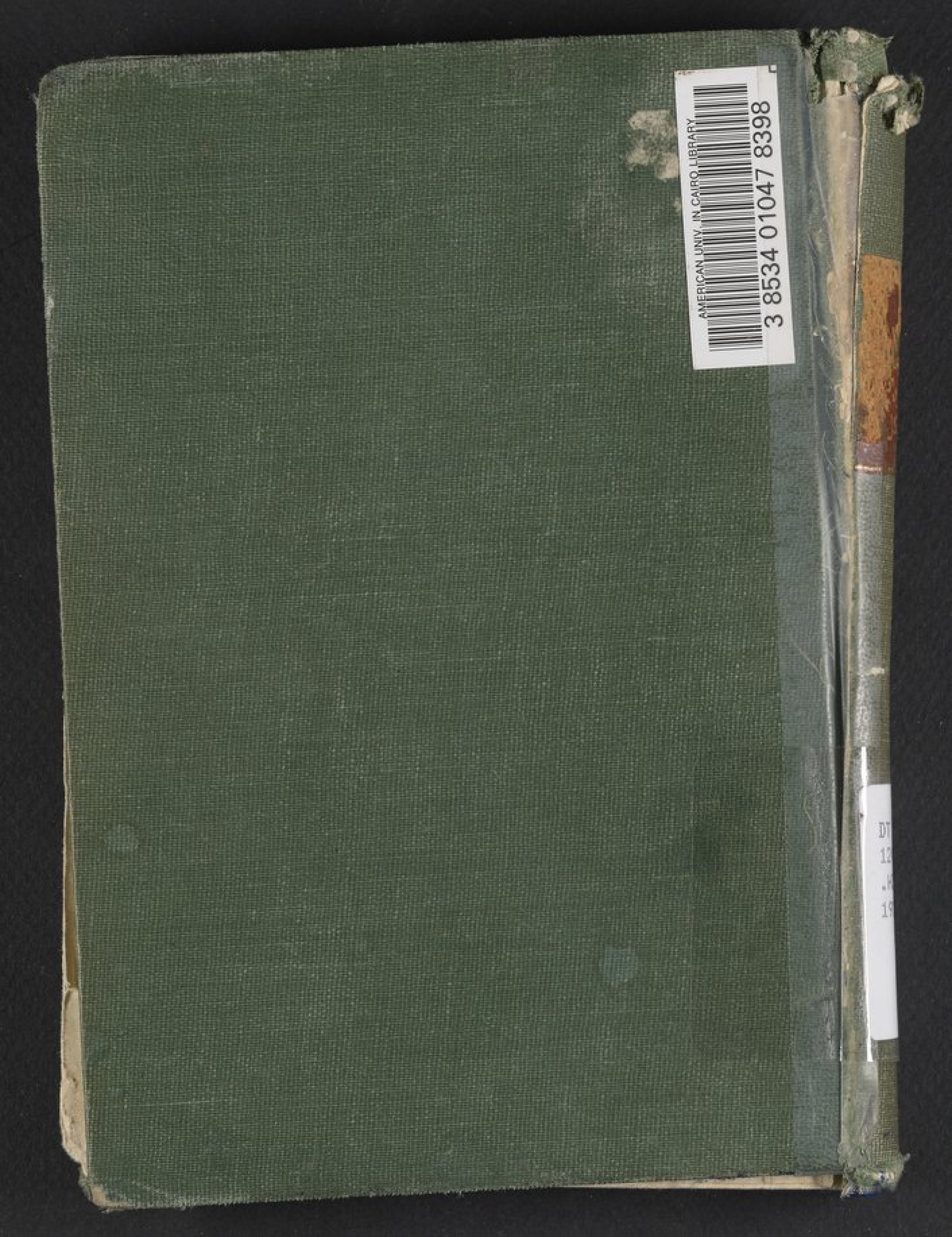




سنة ١٩٢٧

عشرة ايام

فى السودان

بقلم حضرة الكاتب الكبير

الدكتور

محمد بك حسين هيكل

رئيس تحرير جريدة السياسة

عني بنشره

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بشارع الخليج الناصرى رقم ٦

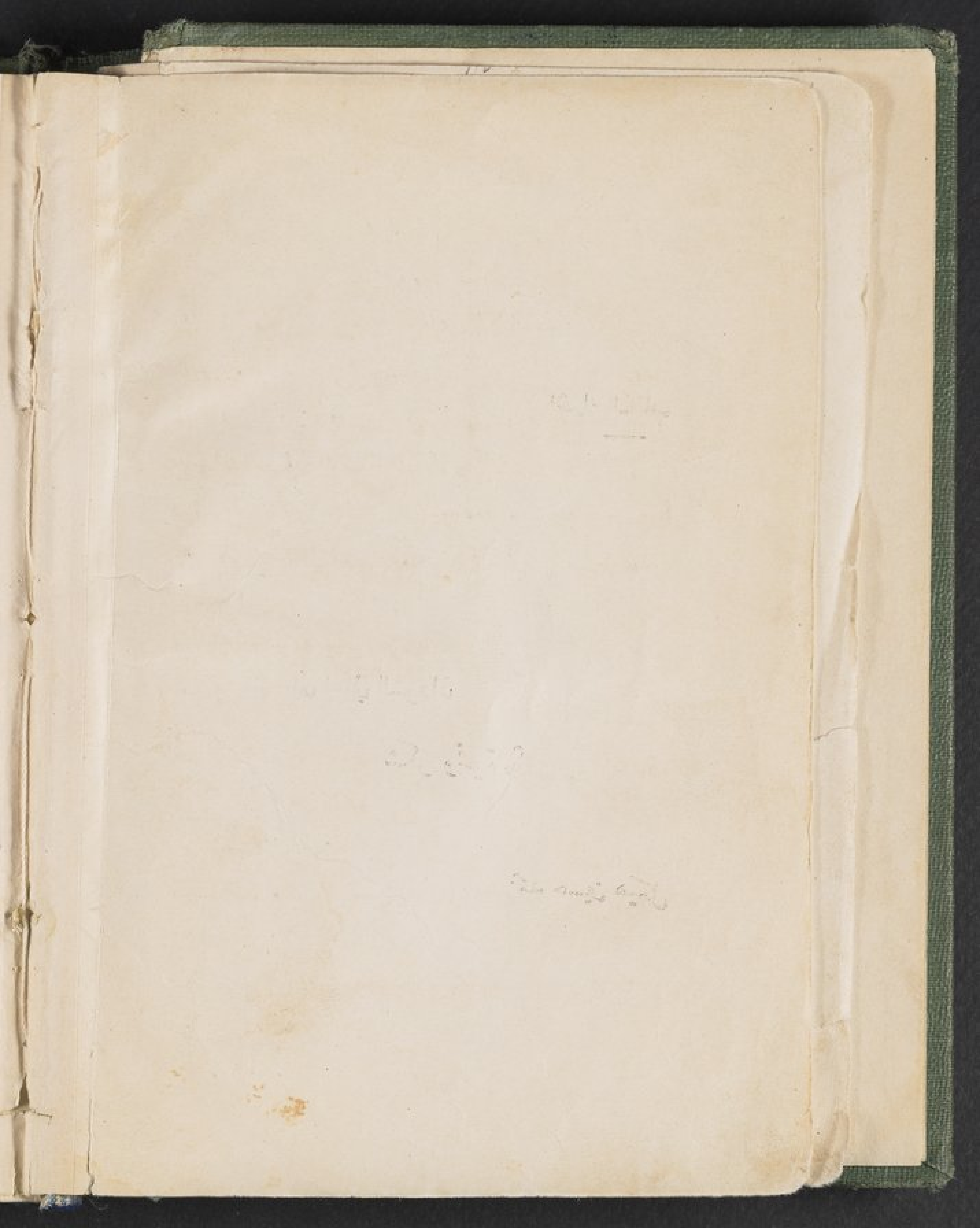
(صندوق البريد رقم ٩٥٤ — مصر)

اهداء الكتاب

الى اهالي السودان

شكر وتحية ؟

محمد حسين هيكل



السودان . ولعل اكبر السبب في هذا راجع إلى أن لدي المصريين فكرة تكاد تكون صحيحة عن سوريا وأحوالها وما يدور فيها ،والى أن السوريين أنفسهم يكتبون عن بلادهم وعن أحوالها ما يزيد في الدقة على كل ما يمكن أن يكتبه سائح قضى مدة قصيرة في ربوعهم . ثم لعل ثمت سبباً آخر . ذلك أن بين مصر والسودان رابطة طبيعية هي النيل ابو النعمة ومانح الحياة للبلاد المحيطة بواديه الضيق الخصب المتصل أوله بآخره بآثار التاريخ الخالدة على التاريخ . هذه الرابطة الطبيعية المتصلة بها حياة المقيمين على ضفاف النهر السعيد تجعل بين ابنائه من رابطة الأخوة ما إن عقوه يوماً فلن يزال رابطة تربطهم ويجب أن تنتهي الى خير ما تنتهي اليه مودة ذوى القربي .

ثم إن السودان على متاخمته لمصر وعلى امتلاء قلوب المصريين باسمه وبذكره بعيد عن أن تكون منه في اذهانهم صورة مضبوطة . فمنهم من يخاله بلاداً جرداء لا تصلح لمقام ولا يمكن أن تكون الا منفى لمن غضب عليه الآمر في ارض مصر . ومنهم من يتوهمه مقام همج لا أمل فيه لرواج زراعة أو صناعة أو تجارة . وكثيراً ما روى عنه الراوون أن أهله أشد الناس عداوة للسعي والعمل ، وأنهم لا يريدون من الحياة الا بلغة تقيم الحياة ، فليس بهم الى مياه النيل من حاجة ،وليس الى المقام بينهم باسم المدنية او التعمير سبيل ، هذه الافكار وما اليها من مثلها تروج في مصر ، ومنها كثير فاسد أشد

الفساد وضار بالمصريين أنفسهم ابلغ الضرر . فليس بد إذن من أن يكوّن المصريون لأنفسهم عن هذه البلاد صورة صحيحة بعيدة قدر المستطاع عن أن تلونها شهوات الساسة بالوان خداعة تنفر أو تستهوى . وهـذا ما حدا بي الى وضع مشاهداتى أمام نظر القراء لعلهم يجدون فيها ما يمكنهم من تكوين هذه الصورة الصحيحة .

ثم إن مسألة مياه النيل واولوية مصر التاريخية في الانتفاع بها ، وامكان توزيعها لتكفي مصر والسودان جميعاً إمكاناً فنياً ، وما قد يقوم فى وجه ذلك من عقبات سياسية ، وما تجنى هذه العقبات السياسية على حسن فهم المصريين والسودانيين بعضهم لبعض، وعلى إحتفاظ كل منهم إزاء أخيه بعواطف الاخلاص والمودة — كل ذلك جعلني أوجه حظاً كبيراً من همي ومن عنايتي الى هـذه المسألة الخطيرة التي لم تنج في مصر كما لم تنج في السودان من شوائب الشهوات السياسية ، والتي كانت وما تزال سبباً لنشر الدعوة التي تثير بين المصريين والسودانيين العداوة والبغضاء .

وسبب آخر يدعوني لوضع هـذه الرسالة . ذلك انني بين من دعتهم حكومة السودان لشهود حفلة افتتاح خزان سنار كنت الكاتب المصري الوحيد الذي قد يعني بدراسة الحال هناك وبذكر آراء مستقلة تمام الاستقلال عن أن تشوبها شوائب الهوى والغرض . فان المصريين الذين دعوا لهـذه الحفلة كانوا أربعة . اسماعيل

سري باشا وزير الاشغال وعبد الحميد سليمان باشا مدير السكك الحديد المصرية . وهذان دعيا لما لهما من رأي سابق في مشروعات النيل وعلاقة حاضرة بالخزان الذي دعى الناس لحضور حفلة افتتاحه . وقيل انهما دعيا بصفتهما العلمية . وهما قد ذهبا من قبل الى السودان مرات ولهما في أمره آراء كثيرة منها ما له وزن وقيمة . لكن مراكزهما الرسمية حالت وتحول دون نشر شيء من هذه الآراء بل دون نشر ملاحظات من أي نوع كان عن السودان . وهما بعد لم يتخذا من الكتابة والأدب وسيلة لايقاف الرأي العام على ما يريدان أن يقف الرأي العام عليه،ولا يريدان طبعا اليوم أن تكون الكتابة مهنتهما.

أما مندوب المقطم الذي دعي هو الآخر لشهود الحفلة فقد أقام بالسودان من قبل سبعة عشر سنة وله بأمره المام غير قليل وكان له فيه تاريخ منذ دخل فيه وخرج منه ولم يكتب عن السودان شيئًا .

فكان لزامًا بعد ذلك كله أن أخضع لما بينت من الاسباب التي دفعتني لكتابة هذه الرسالة .

* * *

ربما كان انفرادي بهذه الصفة يجعل ممكنًا تسرب الخطأ الى ملاحظاتي وأفكاري . ولو أن الذين دعوا من الكتاب المصريين ، صحفيين وغير صحفيين،كانوا اكثر عدداً لكانت ملاحظاتهم لا ريب

اكثر وأدق . ومثل هـذه الملاحظة أبداها المسيو السندريني الذي قام بجانب كبير من مشروعات الري على النيـل ، سواء في خزان اسوان ،أو فيما أقيم الى اليوم عند جبل الاولياء ،وفي خزان سنار نفسه، والذي دعي بهذه الصفة لحضور حفلة افتتاح هذا الخزان الآخير . فقد تحدثت اليه ونحن في الطريق مابين حلفا والخرطوم فدهش حين علم انني أمثل الصحف المصرية العربية كلها . وكان مرجع دهشته أن حكومة السودان كالحكومة المصرية يعنيها أن يقف الناس على حقيقة ما لمشروعات السودان من أثر على ثروة مصر وعلى ثروة السودان جميعاً .ولا يكون ذلك بما تذيعه أي الحكومتين من نشرات يسهل طعن خصوم الحكومتين عليها وانتقادهم إياها نقداً قد لا يتفق مع الواقع في شيء ،وقد يسهل تفنيده لمن رأى السودان بنفسه . وإنما يقف الناس على الحقيقة مما ينشره الذين يرون هذه المشروعات رأي العين وتتاح لهم فرصة سؤال ذوي الشأن ومن باشروا العمل عن أثر هذه المشروعات وما يمكن أن ينجم عنها من ضرر لمصر وعن وسائل اتقاء هذا الضرر .

وكلما تعدد الذين يرون هذه المشروعات ويرون السودان كله ويبدون رأيهم فيما وقع تحت انظارهم استطاع الجمهور أن يقف على الحقيقة بعيدة عن كل تزيين أو تزييف .

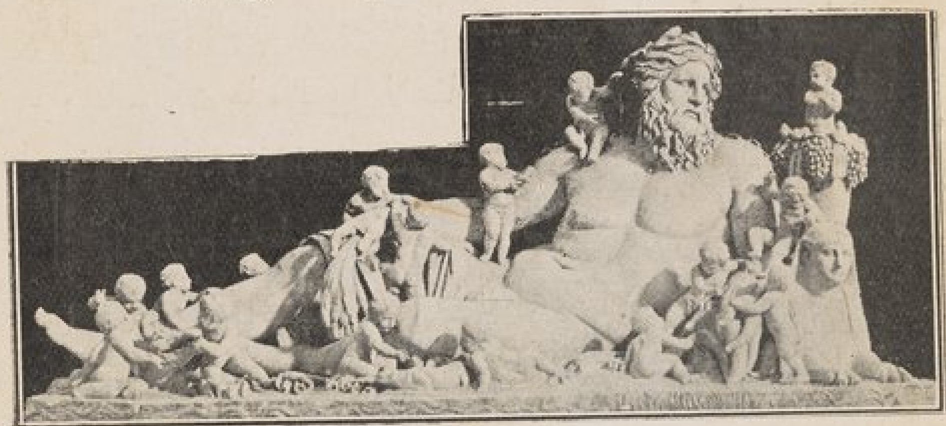
على أن انفرادي بهذه الصفة جعلني اشعر بثقل حمل الواجب الملقى على عاتقي . فسعيت بكل ما لدي من جهد لأرى ولأسمع ولأحقق ولأصل الى الفكرة التي اقتنع بصحتها في كل مسألة اتعرض لها . ولذلك لم أقف من ملاحظاتي عندما جمعت في عشرة الأيام التي أقمت بالسودان . بل جاهدت لامحص هذه الملاحظات بمناقشة من ذهبوا الى السودان ومن أقاموا فيه من المصريين ومن غير المصريين . وكل غايتى من هذا التمحيص أن يكون القليل الذي اعرضه في هذه الرسالة أمام نظر القراء أقرب ما يكون للواقع وللحقيقة .

ويجب أن أنبه القاريء الى أني توخيت غاية الصراحة فيما سيقرأ . لم ارع ما قد يرعاه مشتغل بالسياسة مثلى من المجاملات ولم اسع لتمليق إنسان أو جماعة ولم أتقيد برأي سياسي أو غير سياسي . وإنما سلكت هذه السبيل لاعتقادي التام بأن المواربة كثيراً ما ينشأ عنها الخطأ . وإذا اخطأ الناس في تصور شيء لا وسيلة عندهم الى تحقيق رأيهم فيه لبعده عنهم بعد السودان عن مصر كان عسيراً بعد ذلك أن يتغير رأيهم ثم كانت الخطة التي يسيرون عليها مترتبة على هذا الخطأ داعية التورط في ضلال لا ينشأ عنه الا فساد في السياسة واضطراب في النظام .

وقد رأيت أن أضع فيه بعض الخرائط والرسوم والصور لأن كثيراً من المواقع التي ورد ذكرها في الرسالة ليس مما يتلقاه التلاميذ

والطلاب ولا مما يرصد على الخرائط المتداولة، كما أن الصور قد تفسر ما لا تستطيع الكتابة تفسيره .

وكل ما أرجو التوفيق اليه أن أوقف القراء عامة وبني وطني المصريين خاصة على شيء من صورة هذا السودان الذي يشاركنا في الآمال والأماني لأنه وإيانا يعيش على ضفاف النهر العظيم المحسن ، وأن أوضح أموراً غشت عليها الأهواء ، وان أدل قومي على منزلتهم من السودان ومنزلة السودان منهم ،وما يجب أن يكون بين المصريين والسودانين من صلة وعلاقة . فان وفقت الى ما اليه قصدت فذلك خير ما ابتغي . وإن اخطأني التوفيق فقد قمت بمجهود شعرت واجباً على أن أقوم به . وفي اداء الواجب لذاته غبطة للنفس كبيرة .



من مصر الى الخرطوم

يعرف اكثر القراء الطريق من القاهرة الى الاقصر . هي ككل سكك حديد الحكومة المصرية[١] . وقد قطعناها ليلاً ثم انتقلنا الى الخط ما بين الأقصر والشلال . وما يزال هذا الخط ضيقاً وعرباته على صورة غير صورة عربات سائر سكة حديد الحكومة المصرية . وفيها من أوجه الشبه بعربات سكة حديد الدلتا أن عربات الدرجة الواحدة لا تتشابه . فبينا احداها في نظام كنظام العربات العادية في سكة حديد الحكومة اذا الأخرى فيها كنبات طولية والى جانب الكنبات كراسي من القش ،.وبين بعض هذه الكراسي والبعض الآخر مناضد أعدت للكتابة أو للعب الورق أو لتناول الطعام عليها . واحسبها تستعمل لهذه الغاية الأخيرة اكثر مما تستعمل لأية غاية أخرى. فأ كثر المسافرين بين الاقصر والشلال يأخذون طعامهم معهم وان كان بالقطار عربة أكل تابعة للشركة الدولية فيها مثل طعام سائر عربات الشركة

ولعل الخط ما بين الاقصر والشلال شر خطوط سكة حديد الحكومة . وفساده لا يقف عند سوء عرباته ، بل هو يثير حول

---

(١) تجد للطريق ما بين مصر والاقصر وصفاً في كتاب « في اوقات الفراغ »

المسافر عليه من الغبار ما لا مثيل له في أي خط آخر ، ولا في خط : مصر المنصورة عن طريق بلبيس . وهو لذلك غير محتمل في الصيف بحال . روى لنا أحد الذين كانوا على اتصال بمن يعملون في بناء خزان اسوان ان بعض المسافرين في عربات الدرجة الثالثة على هذا الخط اثناء الصيف لم يطيقوا الحر والغبار معًا فاختنقوا وماتوا

ولقد فكرت ادارة السكة الحديد في مد الخط الواسع من الاقصر الى الشلال . فلعله بعد الفراغ منه وافتتاحه فى أوائل عام ١٩٢٧ ينقذ أرواح اولئك المسافرين بالدرجة الثالثة من الهلاك ويجعل المسافرين في الدرجتين الاولى والثانية اكثر راحة وطمأنينة

***

قام القطار الذي أقلنا من الاقصر في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والاربعين من صباح الاربعاء ١٣ يناير سنة ١٩٢٦ . ولم يكن من المصريين المسافرين فيه قاصدين السودان غير عدد قليل من موظفي حكومة السودان . أما الذين ذهبوا لحضور حفلة افتتاح خزان مكوار فكانوا حضرة صاحب السعادة عبد الحميد باشا سليمان ومندوب المقطم وأنا بالنيابة عن الصحافة المصرية العربية . ولم ينب أحد عن الصحف التي تصدر في مصر باللغة الفرنسية . أما الصحف التي تصدر باللغة الانكليزية فناب عنها مندوب عن الاجبشيان غازت وآخر عن الاجبشيان ميل . وكان معنا من الانكليز كذلك مراسل

التيمس ومندوب عن الافريكان وورلد كلف بأخذ الصور ومعه بعض مساعديه . وسبقنا مراسل روتر بالاسكندرية نائباً عن صحف لندن . أما غير الصحفيين من الانكليز فكثير ، سافر بعضهم مع زوجاتهم وسافر الآخرون وحدهم . ولم يسافر من جنسيات غير الجنسية الانكليزية — من غير الموظفين بحكومة السودان — إلا ثلاثة أشخاص لهم علاقة ببناء خزان مكوار

* * *

يقع الطريق بين الاقصر واسوان في مضيق بين سلسلتي تلال ليبيا والعرب ، ويسير القطار شرق النيل في سفح سلسلة تلال العرب. وتفصله عن سلسلة ليبيا في بعض الأماكن مزارع ضئيلة تتسع أو تضيق على ما تريد التلال المحيطة بها . ويبعد النيل عن القطار أحياناً فيجعل المزارع بينهما . وقل أن ترى المزارع بين القطار وتلال العرب. ويصل الضيق بالمزارع في بعض المواقع حتى لتشعر بالسلسلتين في اقترابهما وليس بين احداهما وبين النهر إلا دهليز ضيق مخضر بالغلال تارات ، أجرد لا زرع فيه أخرى . فاذا كانت اسنا رأيت نشاطاً غير الذي رأيت ، وأحاط بالقطار من الاهالي باعة السلال المصنوعة من الخوص وأطفال يتجرون بفاكهة البرتقال واليوسف افندي .

فاذا بلغت كوم امبو رأيت خصباً ونماء لم يكن لك منذ الاقصر

بهما عهد . وقد يدهشك اكبر الدهشة كيف تترك آلاف الأفدنة مما يحيط بالنيل إله الخصب جرداء لا زرع فيها ولا نماء اذا أمكن أن تنتج هذه الأراضي مثل ما تنتج أراضي كوم امبو . ولمَ لا تعني الحكومة المصرية بتشجيع الاهالي على استغلال هذه الأراضي بدل تركها غامرة يرضى المقيمون عليها بما يتبلغون به من شعير وما يرد اليهم من ذويهم القائمين بالخدمة في المدن من أرزاق

تعود الأرض غامرة بعد كوم امبو الى اسوان . فاذا بلغها القطار غادره كثيرون من الاجانب الذين قصدوا الى هذا المشتى البديع،وهم بين شيخ جاء يرجو في أشعة الشمس المحسنة بعض معاني الصبا والشباب ، وعليل يمشي في مناكب الأرض يبتغي الصحة ، وحسناء تصحب هذا الشيخ أو ذلك العليل يعزيه حسنها ورقتها عن مشيبه أو علته ، وترى هي في اداء الواجب لهذا العزيز شفه السقام شيئاً من رضاء النفس يعوضها عن المدن وبهجتها ، وترى في هذه الشمس الساطعة والطبيعة القليلة التغير ما ينسيها تقلب القلوب وأكاذيب الألسن وظلمات النفوس التي طالما خدعتها باللفظ المعسول . والى جانب هؤلاء الفارين من المدن وأمراضها وآلامها ولؤمها قوم اتسعت ثروتهم عن أن يؤدي ركن ضيق من الأرض طلبات أهوائهم وشهواتهم فجعلوا من السياحة والتجوال وسيلة لترييض النفس وعزاء من هموم الاقامة

ثم يقطع القطار ما بين اسوان والشلال ليبلغه في منتصف الساعة الخامسة من المساء ، وهو في هذا السبيل يعود أدراجه زمناً ثم ينطلق الى الشلال يقد صخوراً وصخوراً من الحجر ومن الجرانيت نحتت منه مسلات الفراعنة الأقدمين وتماثيلهم وأقيمت منه معابدهم وآثارهم ، وهو ما يزال الى اليوم تنحت منه التماثيل وتتخذ منه القواعد لولا أن أصبح فن الفراعنة أثراً من آثارهم

على أن هذه الأحجار التي شهدت لمصر مجداً كما تشهد لها اليوم هماً ستبقى ليكون منها لمجد المستقبل نصب وتماثيل تخلد على الزمن ما خلدت نصب الفراعنة وتماثيلهم

بين هذه الصخور مطار للطيارات البريطانية كان فيه طيارتان غادرتاه قبيل وصولنا . ولعلهما قصدتا إلى حلفا في انتظار مندوب بريطانيا السامي الذي يقوم مقام الحكومة البريطانية في حفلة افتتاح خزان سنار

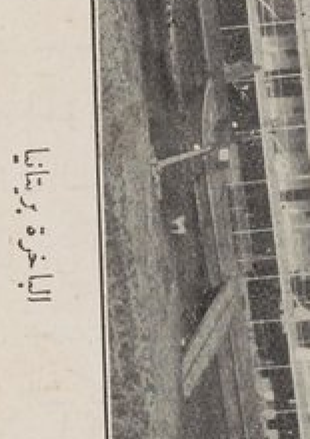
وبين هذه الصخور تبحث الحكومة المصرية عن خير مكان لاقامة معسكر للجنود المصرية بعد أن جاءت من السودان . فهل يمكن أن يكون هذا المعسكر واسطة اتصال بين مصر والسودان يعسكر فيه جيش واحد من البلدين وينتقل منه الى مصر أو إلى السودان على ما ترى حكومة البلادين ؟ لعل ذلك يكون قريباً .

ويبدأ القطار يسير الهوينا يحيط به النيل وقد اتسع مداه بعد ما حجز خزان اسوان مياهه ، ويظل كذلك بضع دقائق ينتهي بها الى محطة الشلال حيث تنتظره الباخرة « بريطانيا » التي أعدت لتقلنا وتقل المسافرين معنا إلى حلفا (انظر صورتها في الصفحة المقابلة)

☆☆☆

الباخرة بريطانيا باخرة نيلية بيضاء ظريفة في مظهرها ومخبرها . وهي من بواخر حكومة السودان . وكل البواخر التي تقل الركاب بين اسوان وحلفا عدا بواخر كوك و بعض الشركات الانكليزية الأخرى تابعة لحكومة السودان . ولذلك كانت حكومة السودان هي التي تتقاضى اجور الركاب وتقوم بنقل البريد والبضائع وكانت الطوابع التي تباع على بواخرها من طوابع حكومة السودان . بل أن بين اسوان وحلفا بعض آثار كوادي السبوع وآماد أو حماد وأبو سنبل . وحكومة السودان هي التي تتقاضى رسوم الدخول الى هذه الآثار . هذا كله مع أن ما بين اسوان وحلفا هو مركز الدر أحد مراكز مديرية اسوان وداخل في الحدود المصرية . وليس من المسافة التي تقطعها بواخر حكومة السودان إلا بضع كيلومترات لا تزيد على العشرين واقعة بجري حلفا هي المعتبرة عند حكومة السودان نفسها داخل حكومة السودان .

وما أشبه سير بواخر حكومة السودان في مياه مركز الدر بسير



الباخرة بريطانيا

سكة حديد فلسطين في شبه جزيرة سينا . والسودان كفلسطين واقع تحت النفوذ بل تحت الحكم الانكليزي . والسياسة الانكليزية ترى — وقد يكون لها الحق في رأيها هذا — أن كل أرض أهملها صاحبها أو أظهر عدم العناية بها والرضى عنها يجب أن يقوم على استغلالها من يعرف وسائل هذا الاستغلال . وسكة حديد فلسطين تستغل شبه جزيرة سينا . وبواخر حكومة السودان تستغل مركز الدر . فلتتبع سينا فلسطين وليتبع الدر السودان ولتقف حدود مصر عند قناة السويس شرقاً وعند شلال اسوان جنوباً . ومن يدري إذا كانت السياسة البريطانية لا ترمي الى هذه الغاية !

على أن الاحتياط لذلك يسير . فليس ما يمنع الحكومة المصرية من أن تسير بواخر بين اسوان وحلفا كما تفعل حكومة السودان وكما تفعل الشركات المرخص لها من الحكومة المصرية . وما تقوم به ادارة سكة الحديد المصرية في الوقت الحاضر من توسيع الخط بين الأقصر واسوان وما يرجى بعد هذا التوسيع والسعي لراحة الركاب والسائحين من زيادة السياحة الى جهات مركز الدر يجعل تسيير هذه البواخر النيلية المصرية واجباً لا يصح التهاون فيه ، فان قليلاً من العناية باستغلال هذا المركز وزيادة موارده وتحسينه يجعله مورداً اقتصادياً لأهله ولمصر من خير الموارد . ذلك بأن مركز الدر في نظر من لا يرى إلا الوقت الحاضر ، مركز فقير غاية الفقر ، تنحدر

جبال السلسلتين عنده في النهر مباشرة . ومن وراء الجبال صحاري غير ذات زرع . لكن مركز الدر هو خزان اسوان . وهو فوق هذا حصن بديع يفصل بين ما يقع شماله وما يقع جنوبه . وهو لذلك من خير مراكز مصر ويجب أن يكون من أعزها عليها . ويخيل إلي أن من غير المستحيل استغلاله على صورة تجعل الحياة فيه اكثر رغداً ونعمة

وهو بعد مشتى لا مثيل له . وأنت كلما انحدرت الى ناحية الجنوب منه وجدت جواً أصح من نواحي الشمال فيه . ووجدت سماء صفواً تلمع نجومها فتضيء في الليالي التي لا قمر فيها حتي لتحسبها مصابيح الكهرباء شدت إلى السماء بخيوط من نور الأمل الساحر . وهي شديدة البريق تبعث الى ظلمة الليل العبوس ما يزيل عبوسها ويجعل سكينتها تملأ أفئدة المحدقين بالنجم اللامع بمعاني الطرب والجذل . أما الجبال المحيطة بالنهر فهي وان كانت أغلب أمرها جرداء إلا انها في تجردها باسمة أبداً ، وكأنها تتيه بما وراءها من مخلفات الماضي المجيد : بآثار الفراعنة زاد القدم والبلى صمتها معنى يحدثك أنت ابن اليوم بما كان لحضارة العصور القديمة من آثار في الفن تخر أمامها آثار الحضارة الحاضرة ساجدة ، وببقايا من آثار الرومان الذين غزوا الوادي فلم يبق من آثارهم إلا بقايا لا تنطق بمعنى ولا تنم إلا عن غدر الغازي وعن سلطانه الأثيم

وقد يدهشك قيام هذه الآثار المجيدة من مخلفات الماضي وراء جبال مركز الدر القفر القليل النبات . لكن دهشتك تزول إذا ذكرت أنه كان اكثر نباتاً ونماء قبل أن تغمر مياه النيل أرضه بعد ما قام خزان اسوان فيه ، وإذا ذكرت إلى جانب هذا أنه كان ولن يزال حصناً قوياً يدرع به الملوك ذوو الأيد إذا اغار عليهم مغير أو ثار بهم ثائر . فجبال مركز الدر تتحكم فيما حولها خير تحكم . تتحكم في النهر وفي السهل وفي الصحراء . ثم هي بعد جبال من صخر صلد لا يرتفع الماء الى عليائه ولا سبيل الى مسراه من خلاله فلا خوف من أن يغير النهر على آثار أعدها أهلها لحياة الخلد وبقاء لا يبلى .

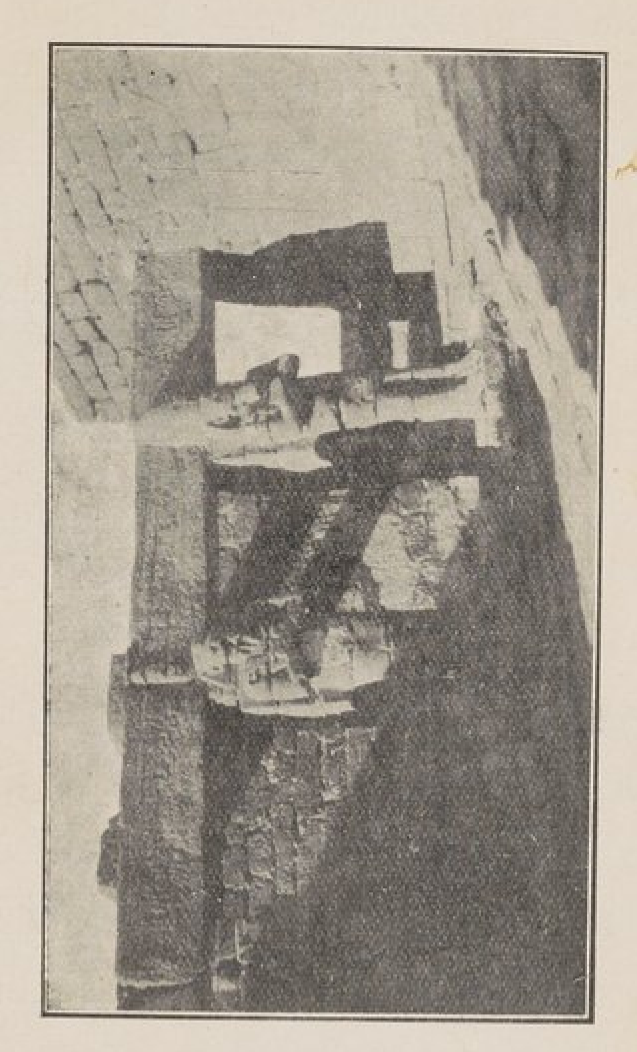
عرجت بريتانيا عند غير واحد من هذه الآثار الخالدة . عرجت عند وادي السبوع وآماد وابو سنبل وغيرها . وهي جميعاً مظاهر من هذا الفن القديم الخالد على تفاوت في العظمة والقوة وفي الدلالة على المجد والسطوة . وابو سنبل هو بين آثار مركز الدر اكثرها عظمة وقوة ومجداً وسطوة . وناهيك بمعبد أقامه رمسيس ليكون واحدة من آيات خلده . وكان رسو السفينة عند أبو سنبل في منتصف الليل فمدت اليه اسلاك الكهرباء ليرى السائح ابن اليوم نقوش أجداد الانسانية الخالدين على ضيائها اللامع . فمعبد ابو سنبل يخفي مكنون ستره عن العيون الا لحظة من نهار في بعض أيام السنة . تلك لحظة مشرق الشمس عند استواء الفصول . في هاته اللحظة

تمتد أشعة اله طيبة والمصريين فتحيي ، لحظـة بزوغها منتصرة على جيوش الظلام ، تمثال رمسيس الخالد الجالس على عرشه منتصراً على جيوش الخيانة والغدر . أما فيما سوى هذه اللحظة فيختفي ما ينطوي عليه المعبد وجدرانه في حجب الغيب وجلاله . وناهيك بجلال الغيب من حجاب . وكذلك ظل هذا الأثر حتى امتدت الأيدي الآثمة باسم العلم تكشف النقاب عن هذا الجلال بضياء المصباح والكهرباء . على انها حين كشفت عنه لم تكن أمام عظمته وقوته وأمام سلطانه وسطوته أقل سحراً و بهراً .

و بهذا الجلال المطوي في حجب الغيب تحيط جدران معبد ابي سنبل وقد وقف أمامه تماثيل أربعة للملك العظيم كلها المهابة والجلال .

٭٭٭

أما وادي السبوع – وهو أقرب آثار مركز الدر الى اسوان – فيقوم فوق هضبة غير بعيدة عن النهر . يتخطى الداخل اليه دهليزاً يحيط به آباء هول هي السبوع التي اطلق اسمها على الوادي عند أهل هذه المنطقة من السذج القانعين بسعادة الطبيعة الساذجة . وقامت داخل المعبد وفي ساحته تماثيـل دكت من بعضها رؤوس وتحطمت من البعض سيقان . وتلى ذلك الحجر المحجوبة بطلاسمها المقدسة وقد رسم على جدرانها من آيات ذلك الزمن القارب والجعران والثعبان وما اليها من آلهة تلك العصر المجيدة



بربة وادي السبوع

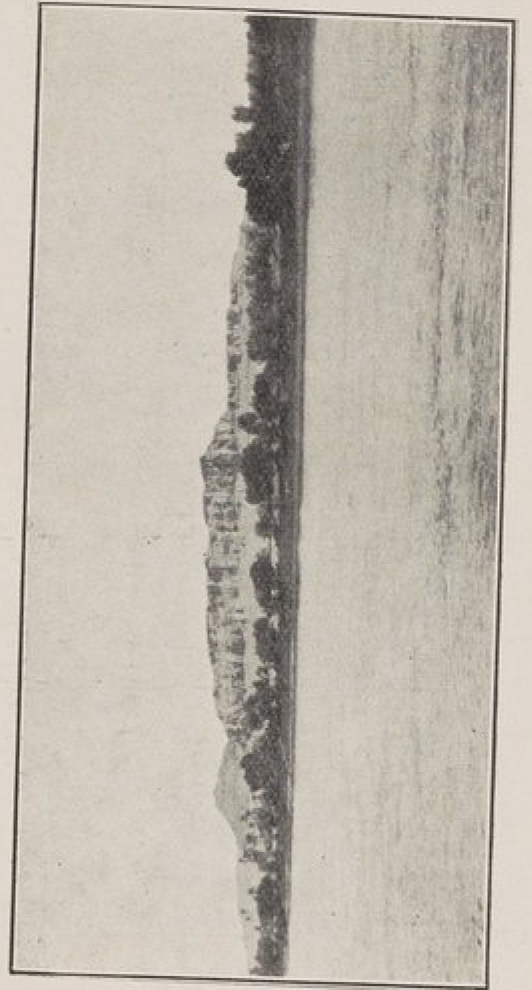
أما ما سوى هذين من الآثار فأقل منها جلالا وعظمة . على أنها أبداً آثار العصور المجيدة . تحدث احجارها ويحدث الرمل المحيط بها بما كان لأهل هاتيك الأزمان النائية من حضارة ومجد ، ويدعك وانت بين تلك التلال القائمة وسط الصحراء الغامرة الجرداء عامر النفس بمعان قل أن تدور بخاطرك حين تشهد آثار هذا الزمن الحاضر الممتلئ بحضارته و بعلمه و بفلسفته غروراً

⁂ ⁂ ⁂

لو أن السبل يسرت للوصول الى هذا المشتي البديع ، ثم أقيم فيه من وسائل الراحة والنعمة ما يطمع فيه من يرغب في الاستشفاء ومن يفر من قارس قر الشتاء حيث الشتاء قاس قارس لأفادت مصر من مركز الدر كثيراً ولأفاد أهل هذا المركز من مصحهم الشتوي البديع ما يغنيهم من فاقة وما يجعلهم — وهم أهل أمانة ونشاط — قوى منتجة ذات أثر فعال في حياة مصر العامة

⁂ ⁂ ⁂

وانسابت الباخرة على هون تدفعها محركاتها فوق لجة النهر الهادئ الصافي وسارت تحيط بها شواطئ خضراء تارة مجدبة طوراً ويشتملها هواء رقيق متع به المسافرون فوقها كما متعوا بهذا الجو البديع الذي لا نظير له في مشتى من مشاتي العالم ، وبهذه الجبال الصغيرة



التلال والاشجار على شواطيء مركز الدر

الجرداء تارة والخضراء أخرى والمحاطة بالرمال الناصعة الاصفرار حيناً آخر ؛ وبالآثار المطلة علينا من القمم الصغيرة ترمق أبناء اليوم ترى هل بقي في رءوسهم أو قلوبهم أو افئدتهم أثر من عبادة قدس الماضي المجيد فترى في نفس المصري حنيناً يزداد أو ينقص بمقدار عبادة الشخص وطنه أو مجرد حرصه على ما يجنيه منه من فائدة

* * *

ها نحن أولاء الآن تقترب بنا الباخرة من حلفا ، فلم يبق بيننا وبين رسو الباخرة عندها الا دقائق . وها تحيط بنا زينة الشاطئين من نخيل وأعشاب وتلال ورمال . وها هوذا الماء ينساب الى جانب القارب على هون وفي هدأة وسكون . والجو رقيق والسماء صفو والشمس شمس ربيع زاه ، وحياة الوجود خضراء ناضرة . ثم هـذه حلفا عند مرمى النظر . وها نحن أولاء في سلطان حكومة السودان بعد ما ظللنا في سلطان حكومة مصر الى ساعتين مضتا . فهل نحن سائحون في بلد أجنبي ، أم نحن أبناء النيل ما نزال في وطننا تحكمنا قوانينه كما تحكمنا طبيعته الجميلة الفاتنة ؟

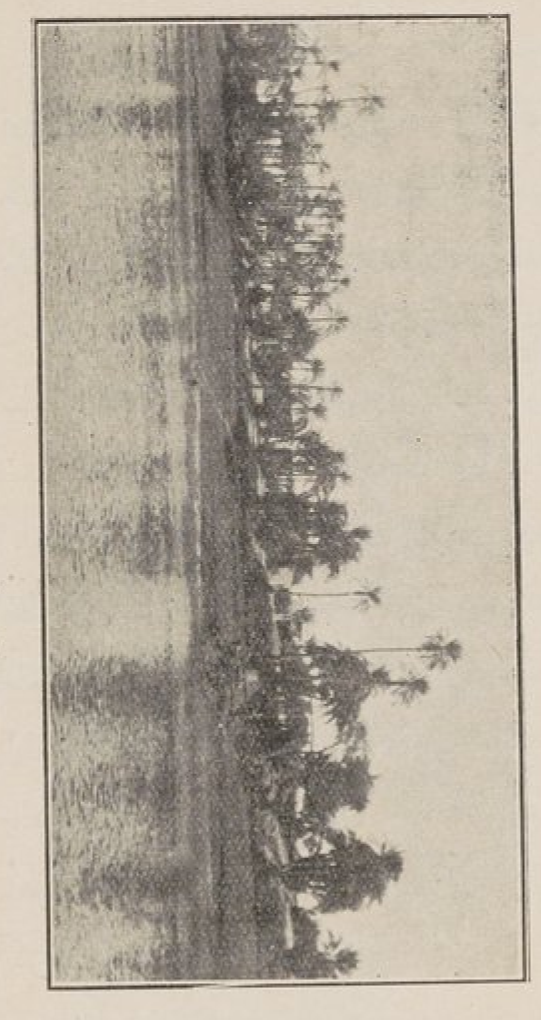
لما اقتربت الباخرة بريتانيا من حلفا أقبل عليها رفاص فيه موظف أوراق الجواز الى السودان وطبيب مهمته أن لا تدخل الى السودان أوبئة من مصر . وهما انكليزيان . وكان أول ما لفت بعض المسافرين الذين جاءوا الى السودان قبل اليوم أن هذا الرفاص

كان يرفع في الماضي العلمين المصري والانكليزي ؛ أما في هذه المرة فلم يكن عليه الا العلم الانكليزي . وقد أجاب انكليزي كان معنا بأن العلم المصري ما يزال يرفع في السودان ، فعدم رفع الرفاص للعلم المصري لا بد أن يكون سببه ضيق المكان المعد لرفع العلمين عن أن يتسع إلا لعلم واحد . قال رفيق : والعلم المقدم هو بالطبع علم صاحب النفوذ الفعلي .

⁂

ورست بريتانيا عند حلفا، واستقبلنا جماعة من المصريين الموظفين في حكومة السودان بكثير من البشر والترحاب ودعانا أحدهم فتناولنا القهوة في بيته . لكن هذا البشر كان مشوباً بشيء من الاحتياط . وهذا الاحتياط الذي لم يلجأ اليه المصريون إلا بعد خروج الجيش والموظفين المصريين من السودان آخر عام ١٩٢٤ سببه ما ادخل ذلك الى روعهم من خشية أن هم تبسطوا مع المصريين القادمين من مصر كما كانوا يتبسطون من قبل أن يصيبهم ما أصاب غيرهم ممن طردوا من السودان طرداً . ولعلهم في احتياطهم على حق ، فهم أحوج إلى البقاء منهم الى الطرد . ومصر بحاجة الى بقائهم حتى تحل مسألة السودان بيننا وبين الانكليز حل سلم واتفاق

وذهبنا الى القطار الذي يقوم من حلفا في الساعة الثانية من بعد ظهر يوم الجمعة ليصل الى الخرطوم في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم



شواطىء النيل على مقربة من حلفا

السبت فاذا به قطار أبيض واذا خطه ضيق كخط سكة الحديد ما بين الاقصر واسوان . لكنك ما تكاد تدخل إلى عرباته وما تكاد تستقر في فرغة النوم المخصصة لك حتى تشعر بمعنى آخر غير شعورك حين دخولك قطار الاقصر — اسوان . معنى النظام والنظافة والطمأنينة والراحة . ويدهشك أن عربات النوم في هذا الخط الضيق اكثر رحبًا واستهواء من عربات النوم في مصر . فمعدات الراحة فيها اكثر منها في عربات مصر . سررها اكثر سعة وغرفها أرحب ، وبها مقاعد يجلس عليها الانسان حين لا حاجة به الى النوم . وبها مروحة كهربائية ومنضدة صغيرة ودولاب صغير لاناء الماء وما قد تريده من لبن أو فاكهة . هذا غير وعاء الغسيل النظيف اللطيف

تحرك القطار في الساعة الثانية وما كاد حتى ذهبنا نتناول غداءنا في غرفة الطعام . وهي على مثال غرف النوم في كفالة الراحة والطمأنينة . والطعام فيها مثله في البواخر النيلية أقرب للنظام الانكليزي في أصنافه . والقائمون بالخدمة فيها كالقائمين بالخدمة في البواخر النيلية ، هم جميعًا من أهل البلاد . لا تقع عينك بينهم على أجنبي يقوم بالرياسة عليهم . وهم كزملائهم في مصر نظامًا ونظافة وأدبًا .

ما يكاد القطار يترك حلفا (المعسكر) حتى ينطلق في (عطمور) أبو حمد . وهذا العطمور رمال تمتد امام النظر عن الجانبين حتى تلتقي بزرقة السماء الصافية عند الافق . ويبتعد النيل عن سكة الحديد في

استدارته الكبرى ما بين حلفا وابو حمد وتسير سكة الحديد في
خط مستقيم وسط الرمال مدى يزيد على ثلاثمائة كيلو متر . وفي هذا
العطمور ينطلق القطار ماراً بمحطات لا يحيط بها إلا بناء المحطة وبيت
الناظر ومساكن العمال . وبين كل واحدة وما بعدها ما يزيد على
ثلاثين كيلو متراً . وبيت الناظر ومساكن العمال — أو تكلاتهم كما
يسمونها في السودان — قد بنيت في شكل عجيب . فقاعدتها جدران
مستديرة من الطوب الأحمر ترتفع عن الارض مترين أو تزيد قليلاً
وفوق ذلك قباء على شكل قباء الصيوان حتى لتكاد تحسبه صيواناً
بالفعل لولا ما تتبينه بعد اقترابك منه من أنه بناء غشي بالجير الابيض .
وهو على هذه الصورة أكثر اتقاء لسوافي الرمال ولما قد يندر أن
تقذف به الصدفة من الامطار . وحول بيت الناظر ومساكن العمال
رمال العطمور . فهم بذلك في وحدة دونها وحدة الناسك في صومعته .
ويمر بهم قطار حلفا والخرطوم أربع مرات في الاسبوع ذهاباً وجيئة
فيحمل اليهم أرزاقهم .

ولما لم يكن حولهم من مظاهر حياة الانسان ما يذر لهذه الاماكن
أسماء تذكر بحادث وقع فيها أو برجل أسس أول عائلة عمرتها أو بما
سوى ذلك مما يبقى تاريخاً لمظهر من مظاهر الحياة الانسانية فليست
لهذه المحطات اسماء تتصل بهذا التاريخ . ولذلك اعتبرت نمراً تبدأ
عند حلفا بنمرة واحد ، وتنتهي قبل أبي حمد بنمرة عشرة . وعند نمرة ٦

يقف القطار طويلاً لتبديل القاطرة وللاتصال بمناجم للذهب فى أم نباردى تقوم شركة انكليزية باستغلالها

لا وسيلة لقطع الوقت وهذا التشابه يحيط بك إلا أن تقرأ أو تتحدث الى من معك من المسافرين ، واكثر المسافرين معنا من الانكليز . وهم على رقتهم وظرفهم اكثر اتصالاً فيما بينهم منهم بغيرهم ، على اني قضيت ما بعد العشاء الى منتصف الليل في حديث طويل مع المسيو السندريني الذي قام على نحو ما سبق القول بأكثر أعمال خزان مكوار كما قام من قبل بحظ كبير من أعمال خزان اسوان

بقيت أتحدث والمسيو السندريني حتى قاربنا منتصف الليل . وكان القطار ينساب سارياً في ظلمة الليل الداجي زاده ظلمة ما يحيط بنا من أنوار الكهرباء التي تحجب عنا ما قد يكون من التماع النجوم في السماء . وسألنا الخادم عن الوقت الذي يصل فيه القطار الى العطبرة فاذا هو يصلها في الساعة السابعة صباحاً . حينذاك قمنا الى مخادعنا يهزنا القطار حيناً فيطير النوم من أعيننا ويغلب النوم علينا حيناً فلا نحس باهتزاز القطار . ثم انبعثت من خلال النوافذ تباشير الضياء وجاء الخادم بشاي الصباح . وما كدنا نفرغ من تناوله ومن لبس ثيابنا حتى كان القطار قد بلغ العطبرة ليقف فيها ساعة كاملة

عند العطبرة تلتقي سكة حديد (حلفا — الخرطوم) بسكة حديد (بور سودان—كسلا).وفيها حركة كبيرة لسكة حديد حكومةالسودان.

بها ورشة للوابورات كاملة النظام . وبها كذلك عدد عظيم من الموظفين المصريين . بل لعل أكبر عدد من الموظفين المصريين بالسودان هم المقيمون بالعطبرة . لقينا جماعة منهم على رصيف المحطة برغم هذه الساعة المبكرة من الصباح فرأينا منهم هذا البشر الذي رأيناه من مصري حلفا ، ومنهم علمنا أن المدارس الموجودة بالبلد لا تقوم إلا بشؤون التعليم الأولي ، وان خير مدرسة فيها تابعة للامريكان حيث يتعلم الطفل الى أن يبلغ ما يقابل السنة الثالثة الابتدائية في مصر ثم يرسل أهله به الى مصر ليتم التعليم فيها

أما أهالي البلاد فما تزال الحكومة تكتفي بتعليم بعضهم التعليم الأولي البسيط ليتخرجوا بعد ذلك وليقوموا ببعض الأعمال الكتابية وبعض أعمال فنية أخرى كالتلغراف وبعض أعمال سكة الحديد ونحوها

واكبر موظف مصري في العطبرة يتقاضى مرتبًا ستة وثلاثين جنيهًا . وهو وحده الذي يتقاضى هذا المرتب . أما من يليه في الدرجة فيتقاضى سبعة وعشرين جنيهًا ويلي هؤلاء من دونهم في الدرجة من الموظفين

وقام القطار من العطبرة الى الدامر فاجتاز نهر العطبرة على جسر (كبري) متين حسن الشكل . ونهر العطبرة صغير كان ماؤه

حين مررنا به غائضاً . ومن بعده وقف بنا القطار في الدامر عاصمة بربر

في هذه المنطقة وما بعدها تبدأ زراعة القطن على المطر . لكنها هنا ليست متسعة النطاق وأن كانت تؤذن بازدياد مطرد . ومن هذه المنطقة يسير القطار الى الخرطوم قريباً من النهر تارة ، بعيداً عنـه طوراً ، مخترقاً صحراء جافة حيناً فهي أقرب الأشياء شبهاً بالعطمور ، ماراً بين أشجار متكاثفة أخرى ، محاذياً بعض المزارع ثالثة . وفي هذه المزارع ترى القطن وغـير القطن من أنواع الزراعة وترى الدوم والنبق وغيرهما من الشجر .

* * *

لبثنا في القطار بين حلفا والدامر اكثر من ثماني عشرة ساعة . وما يزال بيننا وبين الخرطوم ساعات ثمان . ومثل هـذه السياحة الطويلة في سكة الحديد تعيد الى الذهن سياحات طويلة مثلها أو أطول منها في أوروبا . لكن بين هذه السياحة الافريقية والسياحات الاوربية فرقاً كبيراً . فاكثر السياحات في أوربا تمر بك بين جبال رفيعة وسط جو سريع التقلب وطبيعة لا يحول عبوس الجو دون ابتسامها . واكثر السياحات في أوربا تخترق سويسرا أو غابة المانيا السوداء فتريك سفوحاً ناضرة يفوح منها شذا العطر ويبدو للناظر اليها جمال الزهر . وهي بعد طبيعة لم تترك للطبيعة . بل شارك الانسان الطبيعة في زينتها وفي جمالها فزادها زينة وجمالا . أما هـذه السياحة

الافريقية الطويلة فتخترق بك الصحاري لا حد لها ولا نهاية وتشعرك بالوحدة المطلقة وسط الفضاء الصامت لا تسمع فيه هسيساً ولا ترى فيه طيراً ولا حيواناً ولا ينبت في اكثره نبات ولا شجر . وما انبت النبات والشجر فينبتهما وفي كل قطوب الصحراء وعبوس الجبال لا يفل من غربهما الا جمال الطبيعة الدائمة الصحو . افترانا وقد تخطينا العطبرة والدامر وأصبحنا يقف بنا القطار أو يمر على محطات ذات اسماء وذات تاريخ ويحيط بنا الوقت بعد الوقت شيء من الشجر قد صرنا الى منظر ذي بهجة يعوض ما مضى من عبوس وقطوب ؟

كان لنا في ذلك أمل . لكنه سرعان ما تبدد وبقي لنا منه سراب هو هذه المزارع القليلة من القطن وهذه الغابات ترعى فيها الأبل ويجد فيها البدو لأغنامهم وماعزهم وأبقارهم مرتعاً . على أن لهذا السراب بهجته . ومن تلك البهجة أهل هذه المدن المستوحشة . فهؤلاء هم يقتربون من القطار كلما آوى الى احدى المحطات وبيد امرأة لبن رائب تبيعه وبيد غلام عيش يعرضه لمن به جوع . ولعلك غير مستطيع وان وصفت لك هذا العيش أن تتصور ما هو . فرغيفه صغير الحجم منتفخ لا تدري أهو من ذرة أم من شعير . وغير اللبن الرائب وغير العيش يتجر بعض هؤلاء السود من اخواننا في سلال وأسبات صنعت صنعاً ظريفاً من قش ملون . وهذه هي البضاعة التي

يقبل عليها بعض السائحين وتجد لديهم سوقاً رائجة . أما اللبن وأما العيش فلا عيش لهما الا بين المسافرين من أهل البلاد

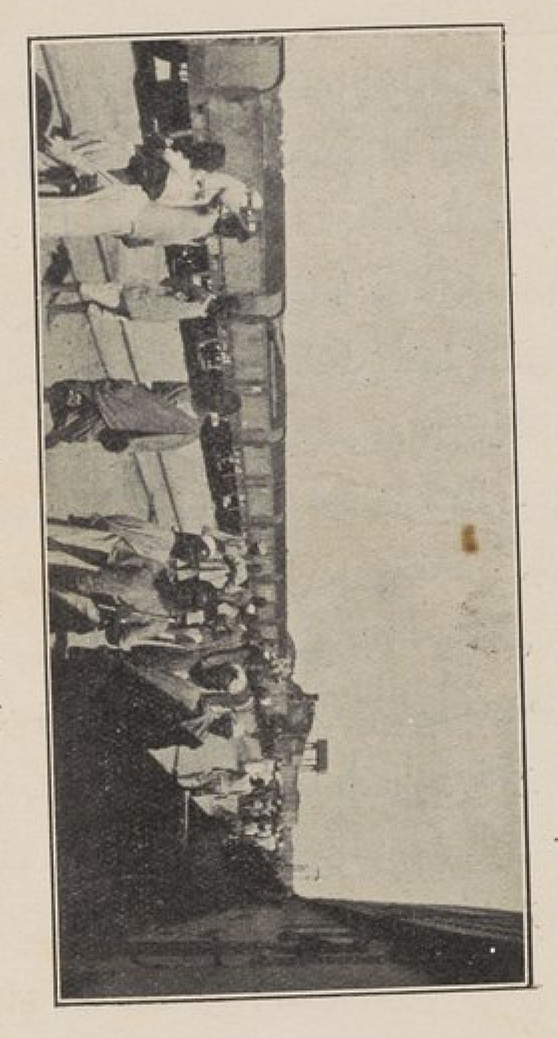
* * *

وهؤلاء السكان من طبقة العمال في السودان ليسوا جميعاً أصليين فيه . بل بعضهم سكتاوية أتوا من سكتو وآخرون فلاتة جاءوا من النيجريا في طريقهم الى الحج فوقفوا في السودان يبتغون ما يقيتهم في هذه الرحلة الطويلة التي تكلفهم أحياناً سنين تباعاً يقومون بها عن قلب طيب ونفس راضية راجين أن يغفر الله لهم بعد اداء فريضتهم المقدسة ما تقدم من ذنبهم وما تأخر

ومن هؤلاء الفلاتة عدد عظيم يقوم بزراعة القطن وجنيه في أراضي الجزيرة . وعلى عملهم تعتمد حكومة السودان الى حد عظيم

* * *

الدامر عاصمة مديرية بربر . والقطن الذي يزرع في مديرية بربر وفي غيرها من مديريات شمال السودان يروي من مياه النيل الرئيسي. وطرائق ريه تختلف . فما كان من زراعة الأهالي فترويه السواقي . وما كان من زراعات الشركات فترويه الآلات . وقد ذكر لي بعضهم أن المساحات التي تزرع قطناً في شمال السودان — أي فيما قبل الخرطوم — ليست كثيرة وليست بذات خطر .فهي لا تزيد على ثلاثين الف فدان . وقد اتفق بين الحكومة المصرية وحكومة



سودانيون بجانب القطارات في احدى المحطات

السودان — أو بالأحرى : والحكومة الانكليزية — على ري هذا المقدار بعد بناء خزان اسوان وتعليته . وحكومة السودان ترسل للحكومة المصرية في كل عام ورقة تسجل فيها أنها لم تزرع زراعة صيفية الا هذه الثلاثين ألف فدان . وتعتبر الحكومة المصرية هذه الورقة كافية فلا تحتاج الى مراقبة هذه المقادير بطريقة من طرق المراقبة تقوم هي بها من تلقاء نفسها أو تتفق عليها مع الحكومة البريطانية .

والقطن الذي يزرع في هذه المناطق كالقطن الذي يزرع في الجزيرة يسلم الى الحكومة لتتولى بيعه بالطريقة التي تراها . وقد رأت بيعه بالمزاد في هذا العام و بعد البيع تحاسب الاهالي . على أنها مع ذلك قد صرحت لبعض رؤساء القبائل ذوى النفوذ بأن يتولوا هم بيع أقطانهم بأنفسهم . وقد ذكر لي مصري من اخواننا اليهود له متجر واسع للاقطان في لفربول أنهُ هو الذي يشتري أقطان هؤلاء المشايخ في كل عام كما يشتري قطن الحكومة . وان المشايخ الذين سمحت لهم الحكومة بهذه الميزة لا يبلغون العشرة عداً

وتسعى حكومة السودان ليكون مستقبل القطن فيه ذا شأن عظيم .فقد روى هذا التاجر أن الاقطان المصرية لم تكن وافية بحاجة المغازل في العام الماضي فقضت لجنة البورصة في لفربول بامكان تسليم القطن السوداني مقابل كنتراتات المصري . ومعنى هذا ان اللجنة لم تجد من الفرق بين القطنين ما يحول دون تنافسهما في سوق البضاعة

وليست تقف زراعة القطن عنـد مديرية بربر بل تتعداها الى المديريات التي بعدها حتى الخرطوم ، وان كانت الأراضي التي تزرع قطناً ما تزال قليلة. وهذه القلة هي التي تجعل اهالي تلك المناطق ما يزالون بعيدين عن معاني الحضارة مستمسكين بتقاليد البـدو الصحيحة ، على ان ما يجـده بعضهم من الربح في زراعة الارض يجذب هذا البعض للاستقرار واستغلال الأراضي

وهذه خلة لم تنتشر بعـد انتشاراً كبيراً . بل ما يزال ميراث الماضي كبير الاثر في أهالي السودان . وأهالي السـودان كانوا الى وقت قريب يأنفون العمل ويقيمون على حياة البادية بكل معانيها . فما دام في دار الواحد منهم بعض الذرة او الشعير عد نفسه غنياً وأنف العمل ولم يأب أن يجود وأن يكرم . ولا ينزله عن انفته العمـل إلا الجوع الذي يلازم الحضارة . فالحضارة حيث حلت بحاجة الى العمل . ومن أنف العمل فقد حل عليه الجوع .

انطلق القطار بنا الى شندى ومررنا بعد ذلك بالشلالات الثلاثة وصرنا نقترب رويداً رويداً من الخرطوم بحري . فلما بلغناها قابلتنا معسكرات كانت معسكرات الجيش المصري حتي العام الماضي ، وقد أصبحت اليوم معسكرات لقوة الدفاع عن السودان. وهذه المعسكرات واقعة على ضفاف النيل الازرق الى الضفة الشمالية وتمتد الى بعد منه غير قليل .

عن يمين الداخل الى محطة الخرطوم بحري متسع كبير أعد

كورنتينة للحيوانات المسافرة الى مصر تبقى فيه الزمن الكافي لليقين بأن ليس فيها ما يحمل الى مصر وباءً أو ضراً ، وتنتقل منها مباشرة الى القطار الذي يقلها الى حلفا فالسفين الذي يقلها الى الشلال

والى جانب هذه الكورنتينة مكان أعدته حكومة السودان لتربية الحيوانات . ولحكومة السودان فيما قيل لي عناية كبيرة بهذه التربية حتى لا تحتاج الى شراء خيل للجيش ولا تستعين من حيوانات الخارج إلا بالنزر القليل مما تحتاج اليه لاصلاح النتاج

☆ ☆ ☆

ينساب النيل الازرق بين الخرطوم بحري والخرطوم . ويجتازه القطار فوق جسر (كوبري) عريض يتسع للقطار وللترام وللراكبين والراجلين . ثم يلتوي القطار بعد ذلك ماراً بين كلية غردون ومدارس الخرطوم المختلفة عن اليمين ومعسكرات الجيش البريطاني عن الشمال ويتابع التواءه حتى يصل الى محطة الخرطوم الرئيسية .

تقع محطة الخرطوم فى فضاء من الأرض لا يحيط به ما يشعر القادم معه بشيء من مهابة محطات العواصم . فالمباني الخاصة بأعمال المحطة منعزلة صغيرة قليلة الارتفاع كمباني محطات الارياف العادية في مصر . وليس لها من وجاهة مباني محطة حلفا أو محطة العطبرة كثير ولا قليل . وخط الحديد لا يظله سقف ولا يحيط به من الافاريز ولا يتصل به من خطوط المناورات الكثيرة ما يرى عادة في المحطات الرئيسية . لذلك

دهش من لم يعرف الخرطوم من قبل أن تكون هذه محطة سكة الحديد لعاصمة السودان . على أن هذه الدهشة لم تدم الاريثما أخذت بالبصر زينات كانت تمتد الى مرمى النظر في طريق متسع يبدأ أمام المحطة . هذه زينات يوم الملك اعدت للاحتفال بعيد تذكار مقدم جلالة الملك جورج الخامس الى الخرطوم حين عودته من الهند في سنة ١٩١٢. وهذا الطريق الذي تمتدفيه الزينات هو شارع فكتوريا. وهو يصل ما بين المحطة وسراي الحاكم العام .

كانت الساعة الرابعة حين وقف القطار في المحطة . وكنا قد أمضينا ستا وعشرين ساعةمن وقت ان غادرنا حلفا . ومهما تكن معدات الراحة بالقطار كاملة فالسفر قطعة من العذاب . لذلك فرح المسافرون جميعاً لبلوغهم الخرطوم . ونزل كل يبحث عن البيت أو الفندق الذي يأوي اليه . ونزلت مع من نزل فالفيت جماعة من المصريين الذين عرفت من قبل وقوفا ينتظرون . فلما رأوني قابلوني بالترحاب والبشر بما أدخل الى نفسى الغبطة والطمأنينة . ثم غادرت محطة الخرطوم الى فندق جراند حيث قضيت أيام مقامى بعاصمة السودان .

الخرطوم لأول نظرة

قبل افتتاح السودان بقوات الجيش المصري وبعض الفرق الانكليزية في العقد الأخير من القرن الماضي كانت أم درمان هي العاصمة الكبرى لهذه الأصقاع المترامية من أراضي القارة الافريقية، وكان يطلق عليها اسم عاصمة الدراويش، وكانت ذات أهمية تجارية خاصة أن كانت ملتقى طرق القوافل الآتية من الأبيض وغير الأبيض من بلاد الداخل. فلما فتحت السودان وجد لورد كتشنر الخرطوم وفيها من التذكارات التاريخية للحملات المصرية الماضية ما يجعل حقاً لها أن تكون عاصمة بدل أم درمان. وكانت قد خربت كل مخرب أثناء الحرب فلم يبق منها إلا آثار واطلال. فجددها بهمة الجيش المصري وقيامه بأعمال البناء وغيرها من أعمال التعمير. وسعي سعيه ليجعل أم درمان أثراً بعد عين. لكن أم درمان بقيت الى يومنا مستقر تجار الواردات الى السودان كما أن الخرطوم أصبحت بعد بنائها وبعد امتداد خط السكة الحديد عندها مستقر تجار الصادرات من السودان.

ولقد روى المحدثون كثيراً من الروايات عن الخرطوم وجعلوا منها مدينة غربية بحتة. فشوارعها متسعة يزيد بعضها على الخمسين متراً ولا ينقص واحد منها عن ثلاثين متراً. ومبانيها منتظمة تمام

الانتظام، وفيها نور الكهرباء يضيء شوارعها ومنازلها، وفيها المياه جارية في كل المنازل. وهذه التفاصيل عن صورة هذه المدينة التي اشتق اسمها من صورة النيل الازرق الملتوي التواء خرطوم الفيل تترك في ذهن القاريء محلا لمقارنات كثيرة. فهذه الشوارع الواسعة وهذه الأنوار الكهربائية وهذا الماء الجاري أقرب ما يكون الى صور مدن المياه في اوربا. ومدن المياه فى أوربا تجمع من معاني النعمة ما لا يجتمع في غيرها من المدن. فيها الحدائق الغناء وفيها أماكن النزهة والرياضة وفيها المجتمعات الزاهية الزاهرة، وفيها كل ما يجلو صدأ النفس ويطرد هموم القلب. اذن لا بد أن تكون الخرطوم على هذه الصورة البسامة الجذابة. فطوبى لقوم جعلوا في أقرب المناطق لخط الاستواء ما قصر عنه كثير من أهل مدائن المناطق المعتدلة.

وتدخل الخرطوم وهذه الصورة تملأ نفسك. فما يكاد القطار يسير بك نحو المحطة الوسطى — كما يسمونها — حتى إذا بك قد مررت — بعد تخطيك كبرى النيل الازرق بين الخرطوم والخرطوم بحري — ببعض مبان للحكومة لا تحقق الصورة التي في نفسك ولكنها مع ذلك لا تقضي عليها. فحول كلية غردون والمدارس المحيطه بها حدائق ظريفة تأخذ بالنظر. لكن بعدها فضاء صحراويا لا بناء فيه ولا ماء. وتتلفت وأنت بالقطار يمنة ويسرة فاذا كل ما حولك مبان قليلة الارتفاع بنيت من طابق واحد. فاذا وقف القطار

رأيت ميداناً واسعاً ليس فيه شيء يزينه ورأيت أمامه مثل تلك المباني القليلة الارتفاع وشعرت بهذه الصورة الجذابة الممتلئة بها نفسك وقد بدأت تذبل وتضمحل . لكنك سرعان ما تشغل عن هذه الصورة وذبولها بمن تراه من معارفك واصدقائك الذين جاءوا الى المحطة ينتظرون هذا القطار القادم من مصر آملين أن يجدوا به من ريح مصر ما يسليهم وينعشهم وان يلاقوا بين الراكبين هؤلاء المعارف الذين غابوا عنهم سنين بعد أن كانوا في حياتهم جزءاً غير قليل من هذه الحياة ، والذين أصبحوا بسبب هذه الغيبة ولوجودهم نائين عن القاهرة ومثلها من الأماكن التي عرفوهم من قبل فيها أقرب إلى قلوبهم وأفئدتهم . ترى هؤلاء المعارف فتهز أيديهم ويهزون يديك بشوق ولهفة ويسألونك عن البلاد ما حالها وعمن خلفت وما صار اليه أمرهم ؟ فاذا فرغت من ذلك وفكرت في اختيار فندق تأوى اليه عاونوك برأيهم وبمساعدتهم وبكل ما يملكون من وسائل المعاونة ، وأشهد لقد لقيت من رفقهم ما أنساني مشقة سفر ست وعشرين ساعة فيها ما فيها من مشقة برغم ما في القطار من وسائل الراحة والطمأنينة

وعرفت ساعة وصولي المحطة أحد كبار موظفي حكومة السودان من السوريين فلقيني بترحاب أي ترحاب وصحبني فى سيارته الى

جراند أوتيل حيث نزلت . وما كاد يستقر بي المقام حتى جاء لزيارتي بعض اخواننا المصريين

وفيما كنت بالسيارة في طريقي الى الفندق أظهرت دهشتي من هذه الصورة التي تبدت لي من الخرطوم والتي لا تتفق في شيء مع ما كان مرتسما لها في خيالي . الشوارع واسعة حقاً وعرضها يزيد على ثلاثين متراً . وفيها الكهرباء حقاً تضيئها اذا جن الليل وولت موليات النهار . لكنها شوارع غير مرصوفة والتراب عن جانبيها كثير حتى ليغوص فيه عجل السيارة . ونحن على ما يظهر في خير احياء المدينة الآهلة بأعاظم سكان الخرطوم من الموظفين . ثم ما هذه المباني المحيطة بنا والتي لا ترتفع اكثر من طابق واحد ؟ وما لها لا يحيط بها من نضرة الزرع وخضرته الا قليل ؟ ولم أستطع اخفاء ما يجول بخاطري فسألت صاحبي ما بالهم لا يرصفون الشوارع . فكان جوابه أن قال : ان ذلك يكلف مليونًا من الجنيهات وميزانية السودان كله لا تزيد على خمسة ملايين . ولذلك تكتفي الحكومة بتسيير الوابوارات الثقيلة في القسم الأوسط من الشوارع الكبرى حتى يتمكن الناس من السير فيه

ازدادت الصورة التي كانت مرتسمة في خيالي من الخرطوم ذبولاً حتى كادت تصل الى حد القبح حين ذهبت في صبيحة اليوم التالي أرود انحاء المدينة. فقد انحدرت الى أحياء أعدت لموظفين أقل من الأولين درجة ولبعض أعيان المدينة ، كما انحدرت بعد ذلك إلى

الاحياء الآهلة بالسودانيين وتجارتهم والتي تقع بعد ميدان الجامع .
وهذا الميدان فسيح متسع أعد لتقام فيه الحفلات ذات الصبغة الدينية
وأخصها حفلة مولد النبي . مع ذلك فهو ميدان ترب تغوص القدم
فيه الى حد يتعذر معه السير ويهد السائر التعب بعد قليل . فأما
ما بعده من الاحياء السودانية البحتة فتتجلى فيها مظاهر الفاقة القاتلة .
ترى فجوات مفتوحة في بناء منخفض هي حوانيت الصناع والباعة .
وترى في هذه الفجوات جماعة السودانيين جلوساً وعليهم ملابسهم
البيضاء أصبحت سمراء من الشمس والتراب . وترى أمامهم من
صناعاتهم العنجريبات والاحذية وغيرها من صناعات وطنية ضئيلة .
فاذا ازددت تغلغلاً الى ما بعد ذلك رأيت حوانيت من القش
يعمرها رجال لا يكاد يسترهم من الملابس إلا قليل . ورأيت بعدها
« سوق النساء » عملت الشمس في وجوههن وأساريرهن فرسمت
عليها من علائم البؤس وآثار الشقوة ما لا تفهم معه كيف ترضى
احداهن احتمال هذه الحياة القاسية لولا ما في الحياة من سحر خداع
يغري أشد الناس بؤساً وشقاء بأمل في يوم نعمة ورخاء . وتبيع هاتيك
النسوة (الكسرة) ، وهي نوع قبيح من الطعوم ، كما يبعن الفلفل وبعض
ألوان الشقاء مما يطعم الفقراء

ولا تطاوعك نفسك لتشهد من بؤس هاتيك واولئك أكثر
مما شهدت فتعود أدراجك طالباً بعض ما يروح عن نفسك

وكان معي صاحب مصري ظريف سار و إياي الى ناحية الترام نركبه الى جهة (المقرن) . والمقرن هو المكان الذي يقترن فيـه ماء النيل الأبيض بالنيل الازرق وتجري عنده السفين التي تقل الركاب المسافرين بين الخرطوم وأم درمان . فقصدنا الى حيث محطة الترام وانتظرناه حتى اذا أقبل ألفيتـه تراماً بخارياً تجره آلة ذات عجيج وضجيج ومن ورائها عربات عدة تكاد تبلغ الثماني أو العشر وا كثرها قذر تقوم فيه مدرجات يجلس عليها ركاب الدرجة الثالثة و به عربتان هما عربتا الدرجة الأولى مفروشة مقاعدها بجلد أو مشمع تود لو أن مكانه خشباً نظيفاً

اجتاز الترام بنا الخرطوم من طرفها الى طرفها الآخر . واجتاز بنا في أحياء تختلف نعمة و بؤساً ، لـكنه كان يسير في شبه صحراء قل أن تقع العين فيها على سائر . فلما بلغنا مخازن الحبوب عند سكة الحديد وقعت العين على منظر ما أحسبني رأيت في الحيـاة شيئاً أشد منه ايلاماً ولا اكثر منه دفعاً للاشفاق الى النفس . منظر لن يستطيع الخيال وان غلا وان بالغ في الغلو أن يصل الى تجسيد الألم الانساني كما جسدته هذه الحقيقة الناطقة بكل معنى القسوة الانسانية

الى جانب مخازن الحبوب ميدان فسيح من تراب ضارب لونه الى لون الرمل . وفي هذا الميـدان تمر الغلال من ذرة أو شعير الى المخازن . وقد يقع منها في اثناء مرورها ما يختلط بهذا التراب

لم أر الحبوب تمر ولم أر ما سقط منها الى الارض واختلط بترابها.
لكني رأيت امرأتين كل واحدة منهما عارية أو تكاد فلا يسترها
إلا خلق قذر يغطي بعض أسفلها و يترك الظهر كله والأذرع والرأس
مكشوفة للشمس وللهواء . وكانت كل واحدة مقعية كما يقعى الكلب
وتنبش الارض بأظافرها وقد أحدثت فيها فجوة كبرى وهي ما تزال
دائبة على النبش وتلقي ما بين حين وحين شيئاً من التراب الذي
يعلق بأظافرها وبيديها في غربال أو منخل الى جانبها . سألت صاحبي:
ما بال هؤلاء النسوة أكببن على الثرى يحتفرنه بأظافرهن كما يحتفر
الحيوان وجاره بمخلبه ؟ قال صاحبي وفي نبرات صوته رنة هم وشجن:
هن فقيرات لا يجدن قوتاً ،وقد تعول واحدتهن طفلاً أو أكثر، وقد
أقبلن يحتفرن التراب آملات أن يجدن فيه حبة من ذرة أو شعير مما
قد ينتثر ساعة حمل الغلال الى المخازن . فاذا ظفرت احداهن بما
حسبته حبة القت به في غربالها .وتظل كذلك يومها تحتفر القوت من
تراب الارض احتفاراً . فاذا خيل اليها أن قد اجتمع في غربالها
بعض منه عملت لتنظيفه عل فيه ما يقيمها ويقيم من تعول من طفل
أو يتيمة يوماً أو بعض يوم . وهن كذلك يفعلن ما أعانهن القدر فاذا
أمطرت الدنيا أو انقضى موسم الغلال فلهن ولمن يعلن البؤس والويل

أي سواد لحظ الانسان كهذا السواد ؟! هو أسود من تلك
الوجوه الشقية والظهور العارية والشعر الفاحم في تجعده والتفافه .

ذلك منظر دونه كل ما رأيت من مناظر الفاقة والبؤس . دونه هاتيك المتسولات يرتجين عطف كريم ، أو يأملن أن تمس توجعاتهن قلباً مكلوماً يفيض حزنه سخاء . هو بؤس النفس التي تعف عن السؤال وترى في غايات الشقاء مع العمل نعمة الرفعة عن مسألة اللئام بل عن مسألة الكرام .

حدثت بعض المقيمين بالخرطوم بهذا وبمثله مما شهدت فيها فأذبل ما كان لها من صورة في نفسي . وجاهدت لأجد لذلك كله عذراً . فالخرطوم بلد جديد ، دخله الجيش المصري ومن معه من فرق انكليزية سنة ١٨٩٨ فألفاه خراباً يباباً . ومن ذلك التاريخ — أي منذ ثمان وعشرون سنة فقط — أقيمت المدينة كلها بما فيها من معسكرات ومنازل وشوارع وطرق . رسمت يوم رسمت على صورة الراية البريطانية لتكون مثلاً للنظام الانكليزي الهادىء المطمئن . وغرست الاشجار فيها فنبت ما نبت منها وأعيد غرس ما مات . والمدن كالأشخاص لها حياة غير الصورة الظاهرة وغير حياة الجسم الذي يتشابه مع أجسام الغير في اكثر مظاهره . لها حياة الروح المستمدة من تاريخها ومما مر بها من محن وآلام ، ومن مسرات وأعياد . وثلاثون سنة ليست كافية لتبعث الى مدينة من المدن حياة الروح ولتجعل منها ما يحدث النازل اليها بمعان تحدث بها المدن

القديمة التي شهدت من غير التاريخ وعبره ما ترك على كل جدار من جدرانها وحجر من حجارتها صحفاً ناطقة بمختلف الصور والمعاني . فالخرطوم العذر ، وهي بعد بلد حديث ؛ اذا هي لم تحدثك بمكنون حياتها، وبدت لك كما تبدو للعين الدمية صنعها الصانع على مثال غيرها من الدمى ولم يكلمها الوقت بجراحه فيجعل لها معنى وقيمة . ولها الى جانب ذلك من العذر أن ما فيها من بعض الجمال انما أعد لمتاع الحاكمين وذوي الامر فيها مما لا تزال مظاهره لذلك قاصرة على الحي الذي فيه يقيمون .

فكان جواب بعض من تحدثت اليهم بما أحسست به وبما التمست للخرطوم من عذر ان قالوا ان فيما أقص عليهم شيئاً من الحق كثيرا وفيه من الغلو كذلك شيء كثير . فالخرطوم بلد حديث حقاً . وليس بين سكانه من التجانس ما يجعل فيه وحدة الروح التي تقيم الحياة . ففيه الانكليز حكام ، وفيه السوريون والمصريون موظفون ، وفيه الأروام والسوريون تجار . وفيه السودانيون أقل من كل من سواهم في البلد أثراً وسلطاناً . وليس بين هؤلاء جميعاً من الاختلاط ما يخلق روحاً جماعية ترفرف على البلد كله ؛ بل لكل جماعة قوامها القومي والجنسي والديني واللغوي ؛ للانكليز ناد وللمصريين ناد وللاقباط من المصريين مكتبة وكنيسة ومدرسة ، وللسوريين ناد ومجامع أخرى ، وللاروام ناديان . والسودانيون أهل

البلاد لا نادي لهم وانما يجمعهم جو بلادهم وروح ذلك المناخ والطقس الذي يشتمل البلاد . وشوارع البلد على سعتها لم تنظم بعد النظام الذي يجعل ساكن اوروبا وساكن مصر يراها بالعين التي كان يظن أن سيراها بها . وأحياء البلد ثلاثة . أولها الواقع على النيل الأزرق مباشرة وهو أجملها واكثرها نظاماً ، لا يقطنه من غير الانكليز إلا السير السيد علي الميرغنى ، فله فيها قصره وله امام قصره ساقية بمائها الجاري . وثانيها مقام غير الانكليز من الموظفين ومقام بعض الانكليز الأصاغر وبه تجارة الاروام والسوريين وما في البلد من دواعي المسرة ، وثالثها مقام أهالي البلاد وبه الجامع وميدانه حيث يقام مولد النبي ، وبه ما سبق أن أشرت اليه من مظاهر البؤس والفاقة . لكن للخرطوم على الرغم من ذلك كله جمالاً وللحياة فيها روعة لمن عرف معنى الحياة وروعتها

ولعل الانكليز أول من عرف كيف يجعل للحياة في الخرطوم معنى وروعة منذ نزلوها . فقد أقاموا لكل منهم منزلاً بما تحتمله كلمة منزل الانكليزية Home من المعنى . جعلوا فيه حديقة وملعباً للتنس ومقاماً للطيور . وجاء كل واحد في بيته من الحيوانات والطيور الأليفة أو التى يسهل تألفها كالغزال والببغاء بكل ما يحتاج اليه لملء أوقات فراغه من غير ملال بل بغبطة ولذة . وقد وجد كل انكليزي من « منزله » الكامل الاداة ما يعوض عليه مشقات العمل في هذا

الجو الشديد الحرارة في فصل الربيع وما يتسلى به عن وحدته و بعده عن بلاده . ثم لم يكفهم هذا فخلقوا ملاعب لهم يلعبون فيها كرة القدم كما أقاموا خارج المدينـة ميداناً لسباق الخيل . ومتى تمت للانجليزي معدات الرياضة كمل له نصف نعيم الحياة . وهو واجد في بيته غير ما فيه من معدات الرياضة سكينة وطمأنينة . فأما ما بقي بعد ذلك من لذة الجماعة والتحدث الى الآخرين فميسر للانكليزي في ناديه بالخرطوم يذهب اليه كل مساء يقضي فيه شطراً غير قليل من وقته .

وقد أخذ غير الانكليز مأخذ الانكليز ونهجوا نهجهم . فلكثير من الموظفين السوريين والمصريين في منازلهم ملاعب للتنس وأنواع شتي من التسلية .

قالت سيدة سورية لها في الخرطوم ثلاث سنوات : لقد شعرت شعورك لأول ما نزلت الخرطوم. فلم يعجبني قفرها وصمتها الموحش . لـكني لم ألبث على ذلك إلا قليلاً . وما لبثت أن وجدت في منزلي وما حوله من حديقـة وملعب وطير أو حيوان سلوى حببت إليّ الخرطوم وجعلتني أرى للحياة فيها متاعاً وروعة

ولا ريب في احتواء ما يقولون على جانب من الحق كبير . فالبيت يشغل من حياة الانسان رجلاً أو امرأة حظاً عظيماً . فيه لمن عرف كيف يعيش فيه نعمة وسعادة . وليس البيت هذا الطابق

الضيق في احـدى العمارات المشيدة يحيط بساكنه عن اليمين وعن الشمال وأعلاه وأسفل منه من يرى ضرورة المحافظة على سكينتهم كي يحافظوا على سكينته ، ثم هو لا يجد بعد في هذا الطابق ما يعينه على مرحه ورياضته .انما البيت الذي فيه النعمة والسعادة هو ما اتسع لحديقة وملعب وكفل لصاحبه سداد ما يحتاج اليه وما يشتهيه . وما اكثر ما تكفل بيوت الخرطوم هذه الحاجات

ويذهب المقيمون بالخرطوم في تحبيذ مدينتهم الى اكثر من هذا ، فهم يسألونك : ألا ترى هذا الشارع الجميل الممتد على شاطىء النيل الأزرق ما بين سراي الحاكم العام وحديقة الحيوانات والواصل الى المقرن ؟ ألا ترى المباني على جانبه تحيط بها خضرة الزرع الناضر وقد قامت فيها الاشجار باسقة فاشتملت اكثر المنازل حتى لتكاد تحسب القصر المنيف كوسجاً في ظلال حديقـة ؟ وفي هذا الشارع يقوم فندق (الجراند) وهو يضارع أبهى فنـادق العواصم العامرة بنظامه وظرفه وبالحديقة الغناء الواسعة المحيطة به . وحديقة الحيوانات الى جانبه فيها مسرح للعين ونزهة للخاطر بما تحتوي من ضوار وكواسر ومن طير ووحش وغزال .ثم ان بالخرطوم من أماكن التجارة ما لا تطمع فيه مدينة في حجمها وعدد سكانها : فيها متاجر واسعة يرد اليها كل ما ينتجه العالم المتمدن من أنواع الصناعة ومواد الترف ، وبعض هذه المتاجر كبير الى حد يكاد ينافس معه أماكن التجارة

الكبيرة بالقاهرة . وما عليك إلا أن تزور السوق لترى فيها محلاً لدافيس براين ينافسه محل لفانيان الأرمني ، ولترى كذلك محلاً لكباتو الرومي ولمرهج السوري ولترى غير هذه من الاماكن ما لا تأبى مصر القاهرة أن تنافس به مدائن العالم .

وليس للغريب النازل بالخرطوم أن ينعي عليها عدم توفر المجتمعات العامة بها . ففيها قهوات و بارات ومطاعم . ولئن كان هذا كله قليلاً وكان غير مأهول فلأن سكان المدينة قليلون لا يزيدون عن ثلاثين الفاً ولأن أهلها اعتادوا عيش النوادي يجتمع الى كل ناد من اتفقوا جنساً ولغة وديناً ، فليس بهم الى هذه المجتمعات من حاجة .

وفي هذا الذي يقوله سكان الخرطوم جانب من الحق غير قليل . وفيه ما يدل على أن النظرة الاولى لهذه المدينة الجديدة المختلطة تسرف في الانتقاص منها والجناية عليها . لكن هذه النظرة الأولى تحتوي من الحق هي الأخرى جانباً غير قليل . فهذا النوع الذي يصفون لك من الطمأنينة والسكينة قاصر على جماعة الموظفين والقائمين بأمر الحكم . ولئن كان اكثر المقيمين بالخرطوم موظفين وكان من بها من تجار ينتمي كل منهم الى طائفة يجد في الانتماء لها متاعه فأنت لا تكاد تشعر في الخرطوم بحياة المدنية على ما تألفها في العواصم التي تجمع الموظفين والتجار وأرباب الصناعة والفن والعلم وما تنشؤه هذه الحياة من جو فكري تنبعث

فيه الآراء المختلفة متآزرة مرة متضاربة أخرى عاملة دائماً للسير بالانسانية المحيطة بها في سبيل الرقي والتقدم.

وهذا طبيعي ان كان السودانيون قليلون في الخرطوم جد القلة، وكانت حياة الطائفة الراقية منهم متصلة بالحكومة اتصالاً له من الصبغة السياسية اكثر مما له من أية صبغة أخرى. ذلك بأن أم درمان ما تزال للسودانيين هي المأوى وهي الملجأ. اليها تحن قلوبهم لأنها عاصمتهم وعاصمة اسلافهم وان كانوا لا يملكون الدفاع عنها لتكون عاصمة الجميع وملجأهم ومأواهم.

***

هذه الصورة الخاصة بالخرطوم ترجع على ما ذكرنا الى أنها مدينة جديدة لما تمض ثلاثون سنة على عمارتها للمرة الأخيرة، وإلى أنها بنيت هذه المرة الأخيرة لتسد حاجات الفاتحين ولتقدم اليهم ما يستطاع من مواد النعمة والترف. ولذلك كان اكثر السودانيين الذين يقيمون بالخرطوم إنما يقومون في ركاب هؤلاء الفاتحين وخدمتهم. ومن أجل ذلك لا يستطيع النازل بالخرطوم أن يرى بها ما يكشف له عن معنى الحياة الوطنية في هذه الربوع المترامية الأطراف. وأنت إذا أردت أن تعرف شيئاً من معنى هذه الحياة فلا سبيل لك إلا أن تقصد الى الديم حيث تقوم « تكلات » السودانيين من الصناع والخدم وسائقي السيارات وغيرهم ممن يقومون

في خدمة السادة الحاكمين . في هذه التكلات المبنية من الطين والقائمة في « ديم » الوطنيين ترى شبهة الحياة السودانية المحيطة بالخرطوم . وهي حياة شقية تتفق وما يقوم به أصحابها من أعمال وما لهم عند الفاتحين وعند السودانيين أنفسهم من مكانة .

و « الديم » يبعد عن الخرطوم مدى غير قليل . وهو يعيد الى ذاكرتك حين تراه صور « العزب » القديمة التي يقطنها « التملية » والمستاجرون في أرياف مصر . والديم كالعزب القديمة لا منافذ لمنازله المكونة من غرف أرضية بابها هو الفتحة الوحيدة فيها . منه يدخل الهواء والنور والشمس كما يدخل الناس والدواب .

ولما كانت الخرطوم مقام الفاتحين ومن أحاط بهم من التجار الأروام والسوريين ومن لاذ بهم من بعض السودانيين فالحياة فيها أقرب للحياة الغربية في كثير من مظاهرها . وانك لترى متاجرها متسعة على طراز المتاجر الاوربية كما ترى اكثر التجار فيها اشد بالاوربيين اتصالا . وفي سبيل هذه الحياة الغربية يرضى المقيمون بالخرطوم أن يجعلوا للحوم والفواكه والخضر المحفوظة في علب الصفيح او الزنك حظاً كبيراً في قوام حياتهم ، برغم ما يمكن أن يعترض به أولو العلم في شؤون الصحة على هذه الأطعمة المحفوظة ، وبرغم ارتفاع أثمان هذه المواد التي ترد الى الخرطوم من بلاد بعيدة . لكن لاهل الخرطوم في انخفاض أثمان الحاجيات الأخرى التي تنمو

وتربي في البلاد نفسها ما يعوضهم بعض الشيء عن غلاء أثمان الواردات وما يخفف بعض الشيء كذلك من الاعتراضات الصحية التي يطعن بها على الأطعمة المحفوظة . فالغنم والديكة الرومية وكلاهما طعام صالح شهي رخيصة غاية الرخص . فريال يكفي ثمناً « لأوزى » لذيذ أو لديك رومي اكثر منه لذة . ويرى بعض اخواننا المصريين المقيمين بالخرطوم والمتفننين في الطعام أن الديكة الرومية تحتاج بعد أن تشتري بهذا الثمن البخس الى زمن تقيمه بالمنزل لتسمن وتلذ . لكن الاكثرين يرونها لذيذة من غير حاجة الى هذه العناية .

أما الخضر والفاكهة فنادرة جد الندرة في الخرطوم وفي السودان جميعاً حتى لتنقطع في بعض الفصول انقطاعاً تاماً وحتى لترى الوارد منها من الخارج تتخاطفه الأيدى قبل أن يصل الى الأسواق . ولذلك كانت اللحوم الغذاء الاساسى للمقيمين هناك، وكان لها عليهم من الأثر مالها على أكلة اللحوم لولا حضارة اشربتها دماؤهم اجيالا طويلة فلا تستطيع شهور أو سنوات أن تقتلعها من طبائعهم اقتلاعاً .

على أن الخرطوم تمتاز مع ذلك كله بأنها مقر حكومة ذات نشاط عظيم . فأذا كانت مدينة تنقصها حياة المدنية وينقصها تاريخ المدائن فهي مستقر نشاط كبير للموظفين من اجناسهم المختلفة . وهي لذلك اكثر شبها بالمعمل Laboratoire . وهذه الصورة منها تستحق أن تكون موضوع بحث مستقل وعناية خاصة .

عيد الملك

أو يوم الملك

إثر تتويج صاحب الجلالة جورج الخامس ملكاً على انكلترا في أواخر سنة ١٩١١ سافر على عادة اسلافه ليتوج امبراطوراً للهند . وفيما هو في طريق عودته مر بالسودان وزار الخرطوم في ١٧ يناير سنة ١٩١٢ . وقد اعتبرت حكومة السودان هذه الزيارة بمثابة تتويج لجلالته امبراطوراً للسودان واعتبرت يوم ١٧ يناير يوم عيد رسمي كأنه عيد جلوس جلالته على عرش السودان . ففي هذا التاريخ من كل عام يرسل حاكم السودان العام برقية الى جلالته بالنيابة عن أهالي السودان يعرب لجلالته فيها عن تعلقهم بعرشه واخلاصهم له فيرد جلالته شاكراً أهالى السودان مظهراً حرصه وحرص جلالة الملكة على رغد السودان وتقدمه . وفي هذا التاريخ من كل عام تقفل دور الحكومة وتزين الخرطوم بزينة العيد ويقيم الحاكم العام بسرايه حفلة شائقة توزع فيها الأوسمة التي تنعم بها حكومة ملك إنكلترا على رعاياها من أهل السودان اعترافاً بولائهم وتقديراً لاخلاصهم ولما يقومون به من جليل الخدمة للسودان وللامبراطورية

وصادف أن كان يوم ١٧ يناير سنة ١٩٢٦ يوم أحد، فتأجل الاحتفال بعيد الملك الى يوم الاثنين بعده . ولما كان مندوب انكلترا السامي لمصر والسودان قادما لافتتاح خزان سنار فقد جعلت حفلة هذا العيد التي تقام في سراي الحاكم العام تحت إشرافه ورعايته . يوزع هو فيها ما تنعم به الحكومة البريطانية من الأوسمة ويقوم من المراسم بما تقضي به هذه الرعاية .

وسراي الحاكم العام جديرة بأن تقام فيها مثل هذه الحفلة وما هو أفخم منها . فقد اقيمت على أثر فتح السودان في أواخر عام ١٨٩٨ حيث كانت تقوم السراي التى قتل دراويش المهدي فيها غردون باشا والتى كانت مقر حاكم السودان من قبل مصر . وقد روعي في إقامتها ما يجب لها من العظمة والفخامة . وهي تطل بمبانيها على النيل الأزرق، ولها عنده بابها البحري . وتطل من الجهة القبلية على متنزه واسع الارجاء مترامي الانحاء بديع النظام يقوم في آخره الباب القبلى المؤدي الى شارع فكتوريا فالى محطة الخرطوم .

وأنت إذا دخلت الى السراي من جانب النيل الأزرق قابلك لأول تخطيك الباب دهليز تتصل به غرفة انتظار من ناحية وتتصل به من الأخرى غرف عديدة متداخلة أعدت لموظفي الحكومة المتصلين بالسراي . وجدران هذا الدهليز مزينة كلها بعدة الحرب وآلته . فمنها قبعات وحراب مختلفة اللون والشكل، لكنها جميعًا

قبعات الفرق الأنكليزية وحرابها . وعلى الجدران رايات الفرسان الانكليزية . فاذا انت تخطيت الدهليز وجدت افقياً عليه دهليزاً آخر طويلا يمتد من الجانبين الى ناحيتي السراي الشرقية والغربية . ويطل هـذا الدهليز الافقي على ساحة يقوم على جانبيها جناحان خصص احدهما للحاكم العام وأهله وجعل الآخر لضيوفه . والدهاليز والغرف والاجنحة كلها بادية الفخامة والمهابة . ومن فوق السراي يرفرف العلمان المصري والانكليزي

أما حديقة السراي أو بالاحرى متنزهها فقد فرشت أرضه بسندس الجازون والحشائش الصغيرة وقامت في جوانبه وفي أواسطه أشجار باسقة كان ورقها في هذا الفصل الذي يذبل فيه ورق الشجر في مصر ويتعري من كل ورق في أوربا أخضر ذا رواء وبهجة .ولا عجب ، فأجمل أيام السنة في الخرطوم هي ما يقابل أيام الشتاء . وما بالك بطقس نهاره نهار الربيع وليله أخريات الصيف وكل ما فيه من مظاهر الحياة بسام بديع الابتسام .

***

أصبحت الخرطوم يوم الاثنين إذن في لباس العيد . كانت الرايات والاعـلام ترفرف في شارع فكتوريا وفي مقدمة بعض الحوانيت والمتاجر . وكان الحاكم العام قد دعا الى حفلة شاي تقام في سرايه بعد ظهر ذلك اليوم عدداً يزيد على الثمانمائة من بينهم مائة

وعشرة من أعيان السودانيين ورؤساء القبائل والعشائر فيها ممن لا يقيمون بالخرطوم كما دعا اعيان السودانيين بالخرطوم ودعا كبار الموظفين وكل ذي مكانة من غير السودانيين . وبهؤلاء وبزينة العيد خرجت المدينة من صمتها الموحش بعض الشيء . وكان أعيان السودانيين في جببهم الحمراء والزرقاء المطرزة بالذهب وبسيوفهم المموهة أغمادها بالذهب كذلك اكثر ما خلع على منظر العيد بهجة وزينة .

في الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم استقبل الحاكم العام وقليل من رجاله اللورد لويد مندوب انكلترا السامي الذي وصل ساعتئذ محطة الخرطوم قادماً من مصر ثم قصد وإياه سرايه . ولم يكن في انتظاره بالسراي غير عشرة من أكابر أعيان السودان صافحهم المندوب السامي وقرينته ثم صعدا إلى غرفهما .

ولما كانت الساعة الرابعة قد حددت موعداً لحفلة الشاي حيث يقدم المندوب السامي أوسمة الشرف لأربابها هرع المدعوون الى سراي الحاكم العام ، حوالي هذه الساعة ، ومنهم جماعة « الرسميين » ارتدوا ملابسهم الرسمية وتقلدوا نياشينهم وأوسمتهم ، ومنهم أعيان السودان تقلدوا فوق عباآتهم الحمراء أو الكحلية المطرزة بالقصب المذهب سيوفهم الموشاة الأغماد بوشي الذهب والفضة ، ومنهم غير الرسميين وغير أعيان السودان من ذهبوا في ملابس كل يوم . وبذلك

كانت حديقة السراي معرضاً لأكثر ما يمكن أن يتصوره الخيال من الازياء تبايناً واختلافاً . فكنت ترى الردنجوت والطربوش لبسه الموظفون في الحكومة المصرية من المصريين والانكليز وقد حلى كثيرون منهم صدورهم بالنياشين المصرية . وكنت ترى ملابس موظفي حكومة السودان المدنيين اتخذت من القماش الابيض وفصلت على صورة « الجاكت » . والعمامة والقفطان والجبة ترداها الموظفون الشرعيون كالقضاة والمفتي وواحد أو اثنان غير هؤلاء . والفراك أو البنجور ومعها القبعة العالية على بعض أعيان السوريين أو الاروام من التجار والمقيمين بالسودان . وجبب حكومة السودان الرسمية على أعيان السودان . وبين هذا الجمع المتقمش بأردية المقابلة عدد كبير في الزي العادي على مختلف أشكاله وألوانه .

تزاحمت هذه الازياء المختلفة المتناقضة المجتمعة في هذا المكان وجعلت تتدافع نحو ساحة السراي . ذلك ان الحاكم العام والمندوب السامي جلسا الى منضدة فوق هذه الساحة وجاس حولهما ضيوفهما . كذلك جلس عدد كبير من الموظفين والاعيان الذين تقرر الانعام عليهم بالأوسمة الى جانب من الساحة المحاطة بدار بزون والمرتفعة فوق أرض الحديقة بدرجات . وكان الحاكم العام قد وقف يتلو البرقية التي أرسل بها الى جلالة ملك انكلترا بالنيابة عن أهالي السودان ورد جلالة الملك جورج عليها. فلما أتم تلاوته وترجمها فضيلة

مفتي السودان وزع المندوب السامي الأوسمة على أر بابها . ومشاهدة ذلك كله هي التي أدت الى ذلك التدافع بالمنا كب بين كل تلك الازياء .

لذلك ما كادت هذه المراسم تنتهي حتى انفرط عقد المنا كب المتراصة وانقلب مدها نحو ساحة السراي جزراً في أنحاء الحديقـة الواسعة . ونزل المنعم عليهم من عليتهم وانخرطوا في سلك المدعوين تميزهم أوسمتهم . وأحدث نزولهم الى الناس شيئاً من الحركة سببها اسراع الناس اليهم يهنئونهم بما حازوا من ثقة عالية . فكانت الايدي تتصافح والشفاه تبتسم وحدق عيون المنعم عليهم يلمع بمعاني الغبطة والرضا وتنخفض جفونهم أحياناً في صورة التواضع والحياء مما تبتهج به آذانهم من عبارات تقدير المهنئين وتمنياتهم « الخالصـة » لهم دوام الرفعة ومثوبة رضاء الحاكم . على ان نظر الغريب عن الديار كان يسترعيه ما علق على صدور أعيان السودان الصالحين من أوسمة صيغ اكثرها صلباناً ما كانوا ليرضوا أن تمسها أيديهم لولا ما لها من معنى التقدير والتشريف. ثم ازداد العقد انفراطاً وقصد كل الى مائدة من موائد الشاي المبعثرة على نظام ظريف في أنحاء المتنزه الجميل .

كان أهل السودان في أزيائهم المطرزة اكثر استرعاء للنظر من كل من سواهم . ذلك بأنهم أهل البلاد وروح هذا الجو الصحو الذي يظلنا . على ان استرعاءهم لنظر الاوربيين كان راجعاً لغرابة

أزيائهم وحالهم اكثر منه الى أي معنى نفساني خاص . أما الشرقيون عامة وأبناء وادي النيل خاصة فكان للمعنى النفساني عليهم اكبر الأثر . ولا عجب . فبين الغربي والسوداني من الفوارق في اللون واللباس واللغة والدين والعوائد والعقائد ما يجعل السوداني امام الاوربي لغزاً تتلهى عيناه بصورته الظاهرة ويعجز ادراكه عن استكناه ما تنطوي عليه روحه ونفسه الدخيلة من هزات ينبعث منها تقديره للحياة وغايته منها وفهمه معناها . أما الشرقي فيدرك غير قليل من هذه الهزات الدخيلة لأنه يشارك السوداني فيها كما يشاركه في أصل جنسه وفي لغته وعاداته . وأما ابن النيـل فيسترعي السوداني نظره كما يسترعي نظرك قريب أو أخ غاب عنك سنين طوالاً فاذا رأيتـه ورأيت أبناءه وأقاربه شعرت بين أضالعك بشوق وحنين وحدقت عيناك بهؤلاء الأبناء والاقارب الذين لم ترهم من قبل ولكنما يجري في عروقهم الدم الذي يجري في عروقك وتلذعهم الالام التي تلذعك وتنبض قلوبهم بالآمال التي ينبض بها قلبك

أحاط ببعض موائد الشاي جماعة من هؤلاء الاعيان من أهالي السودان . وكان معي صديق سوداني عرفته يوم نزلت الخرطوم له بكل هؤلاء الاعيان صلة ومعرفة ، فسار واياي يحدث بيني وبينهم من التعارف ما يسمح به المقام . ولقد شعرت وأحسبهم شعروا اثناء هذا التعارف القصير باحساس الاحتياط والحذر الذي لاحظته على

اخواننا المصريين من قابلونا في حلفا وفي العطبرة وفي الخرطوم . فلم يزد ما تبادلنا وجماعة أعيان السودان في حديقة سراي السير جوفري آرشر حاكم السودان العام على عبارات التحية البسيطة . وربما كانت هذه مبالغة في الحذر لا يقتضيها الموقف . لكني كنت من ضيوف حاكم السودان العام فكان واجباً أن أرعى لهذه الضيافة كل حقوقها .

وجلست الى مائدة جلس اليهـا السيد احمد الميرغني وفضيلة الشيخ اسماعيل الأزهري مفتي السودان وجماعة آخرون كانوا كلهم مثال الرقة وحسن الضيافة . وفيما نحن جلوس أقبل السير السيد على الميرغني فقام الجمع تحية له واجلالا وأقبل كل من الحاضرين عليه يقبل يده . وجلس الى جانبي في وقار وهيبة . وفيما هو جالس كان أعيان السودان يقبلون عليـه وينحنون على يده يقبلونها ظاهرها وباطنها ويرجونه الرضى عنهم وحسن الدعاء لهم . وكانوا كذلك يقبلون يد أخيه السيد احمد . لكني أشهد أني ما رأيت إيماناً كهذا الذي رأيته مرتسما على وجوه هؤلاء الناس بادياً في نظراتهم متجلياً في كل حركاتهم حين اقبالهم مسرعين في خشوع واجلال يقبلون يد السيد على وينظرون من طرف كسير نظرة كلها الايمان والاجلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . ومن هؤلاء الاعيان شبان تلوح عليهم مظاهر القوة والاعتداد بالنفس ؛ ومنهم كهول وشيوخ ترى على

عوارضهم من الشيب بياضاً في سواد ؛ ولكل من هؤلاء الشبان والشيوخ سلطان على من يدينون له من القبائل والعشائر . لكنه يتقدم بهذا السلطان أمام السيد على وهو مؤمن بأن كلمة الرضى من لدنه أقوى من كل سلطان .

وللسيد الميرغني احترام خاص لمكانته هذه عند النازلين في السودان من كل الاجناس والطوائف . ويزيد في هذا الاحترام ماله من صفات تملى على من يتصل به اكباره وحسن تقديره . وهو نحيف قصير القوام دقيق تقاطيع الوجه تنم عيناه ببريقهما الشديد عن كثير من الذكاء والدهاء وتطوق ثغره العربي الرقيق الشفاه ابتسامة دائمة تجعل محياه الجذاب دائم الاشراق . وتعلو جبينه قلنسوة أقرب في صورتها الى القلبق التركي القديم الذي كان يلبسه انور باشا وإن لم تكن سوداء مثله ،بل اجتمعت عليها صنوف من الوان سوداء ومذهبة متوازية متقاطعة . ويحيط بالقلنسوة عمامة يصعب تحديد لونها لكن لها مع لون العمامة اتساقا وتجاوبا حسناً . أما قفطانه وجبته فعلى صورة ما يلبسه شيوخنا مع شيء كثير من الاحتشام في الوانها . ولعله أصغر من رأيت من أعيان السودانيين جسما وإن كان اكبرهم مقاماً .وكان لمقامه السامي في غنى عن أن يتحلى بأي وسام من الأوسمة خصوصاً بعد ما أنعمت الحكومة البريطانية في هذا اليوم بمثل لقبه على كل من السير السيد عبد الرحمن المهدي والسير الشيخ على التوم .

ومع ما كان باديًا من الحبور والبهجة على المنعم عليهم بالأوسمة والرتب من أعيان السودان وموظفي حكومته فلا ريب أن اشد من كانت علائم الغبطة بادية عليهم في هذه الحفلة هم الانكليز سواء منهم من كانوا في حكومة السودان ومن كانوا ضيوفًا أو سائحين. ولم يستطع الصحفيون الذين كانوا يدورون في انحاء المكان أن يخفوا ابتهاجهم بما كان أمامهم من مظاهر عظمة الامبراطورية وتفوقها. ولهم الحق وهم يرون ما لدولتهم من سلطان ومجد أن ينال كل منهم من ذلك السلطان والمجد متاعه.

أما المصريون فكان يخالج نفوسهم شعور مبهم يختلط فيه الأسف بالألم بتأنيب الضمير. وكنت تراهم يسير كل منهم منفرداً اكثر الوقت وينظر الى ما حوله بعين الغريب الحائر. ولم يشذ اثنان من الباشوات المصريين نزلا ضيوفًا بسراي الحاكم العام عن هذه القاعدة.

وكذلك كنت ترى اختلافًا وتناقضًا في احساس المجتمعين في هذه الحفلة كما كنت ترى اختلافًا وتباينًا في أزيائهم.

* * *

وحوالي منتصف الساعة السادسة نزل لورد ولادي لويد من ساحة السراي الى الحديقــة ومعهما حاكم السودان العام وبعض الموظفين، وجعل اللورد وقرينته يطوفان بالحاضرين عمومًا وأهل

السودان خصوصاً يتعارفون بهم ويصافحونهم يداً بيد . قال صديق :

– لعل من بين السودانيين من يرى زيادة في الاحترام واكرام الوفادة أن يهز يد اللورد واللادي اكثر من مرة . ولو كثر هؤلاء المبالغون في الاحتفاء لشق ذلك على اللادي بنوع خاص .

فأجاب أحد الحاضرين :

– ان كل شيء ياصاح مستحب مادام فيه خدمة للامبراطورية . ولادي لويد على رقتها واتصالها بالعائلة المالكة في انكلترا تسعد بمصافحة ثمانمائة يد ما دام في ذلك للامبراطورية سعادة وعظمة . وإذا شق عليها المبالغون في الاحتفاء فتلك مشقة يوم له أيام هناء وراحة بعده . وما مشقة يوم في نظر الانكليزي الى جانب مصلحة الامبراطورية الا تمام السعادة .

كانت الشمس قد انحدرت الى المغيب فبدأ الناس ينصرفون جماعات بعضها إثر بعض . وانصرفت ومن معي ميممين أحد الأندية ونحن نذكر عيد الملك يقام في الخرطوم تذكاراً لمرور جلالة ملك انكلترا وامبراطور الهند بها . وفيما نحن في حديثنا حانت التفاتة من أحدنا الى أعلى سراي الحاكم فرد طرفه الينا وقال :

– على كل حال فما يزال العلم المصري خفاقاً الى جانب العلم البريطاني فوق السراي . وفي هذا لنا بعض العزاء عن أن يكون لملك مصر في الخرطوم عيد كعيد ملك انكلترا .

حكومة السودان فى الخرطوم

في مقدمة كتاب لورد كرومر المعنون « عباس الثاني » عبارة يحسن الوقوف عليها لحسن تقدير وسائل السياسة البريطانية في بلوغ غاياتها وحسن ادراك ما تبديه حكومة السودان في الوقت الحاضر من مظاهر النشاط . قال اللورد :

« ان حجر الزاوية في سياسة مصر والسودان أن نضع محل الاعتبار أن ليس ثمة رابطة بين الحاكم والمحكوم عند انعدام روابط الجنس واللغة والدين والعادات الاجتماعية إلا المصالح المادية . وأعظم هذه المصالح خطراً ما كان متعلقاً بالاعباء المالية . لذلك تدعونا كل الظروف السياسية الى أن نخضع جميع الاعتبارات الى ضرورة عامة هي الحرص على تخفيض الضرائب . وعلى المسئولين عن ادارة مصر والسودان أن يعتمدوا جد الاعتماد على أنفسهم في تنفيذ سياستهم على القاعدة المشار اليها . فقليل من يعضدهم في هذه السياسة . ذلك بأن الاقتصاد ليس أمراً مرضياً عند الناس . وكثير من يوجه اليهم جارح النقد . وهم لا يستطيعون الاعتماد الى حد كبير على تأييد الرأي العام المصري أو البريطاني . فالانكليز يميلون عادة الى الأخذ بما سبق الأخذ به في انكلترا من اعمال وتجارب . وقد تزايدت

نفقات الدولة عندهم اخيراً الى حد كبير وثقلت الاعباء العامة الملقاة على عاتقهم الى حد كانوا يحسبونه مستحيلاً منذ وقت قريب. وكان من أثر ذلك أن ساء تقدير الرأي العام للاقتصاد وان تبلد الشعور القومي الى حد ما بازاء ادارة الشؤون الماليــة في البلاد الخاضعة لانكلترا.

« ولن ينفك كثير من كبار الساسة الانكليز وان تنفك الصحافة القوية السلطان عن مواصلة جهودهم في الحث على انهاض التعليم ونشره في مصر إذ يرونه الأساس الأول لبناء الحكم الذاتي. أما أنا فلا أظن ان مثل ما يلقى في المدارس والكليات من تعليم كان ليعد المصريين يوماً ما لحكم أنفسهم ما لم يحوروا طابعهم القومي مما لا يتم الا تدريجاً. وهذه ليست نقطة البحث الآن. فانما اريد أن أبحث في نفقات التعليم وأن أبين سوء الرأي في التوسع فيه الى حد فرض ضرائب باهظة.

« وثمت هجمات من نواحي أخرى يجب صدها. فقــد يلح الاداري الغيور، الذي يقدر ما يستطيع القيام به من خير، في زيادة الطرق والكباري والمستشفيات وسائر معدات المدنية الحديثــة ثم يجهل، مع الحاحه، النتائج البعيدة التي تترتب على ما تحتاج اليه سرعة تحقيق هذه المشروعات من طائل النفقات.

«لذلك يحسن بالساسة المسؤولين عن شؤون مصر والسودان،

بالغًا ما بلغ عطفهم على هذه المشروعات حين مجرد النظر الى مزاياها، أن يبتعدوا عن الساسة الخياليين ابتعادهم عن رجال الادارة في الدواوين،وان يرجئوا ما يستدعي طائل النفقات من تلك المشروعات التي تستهويهم حتى يثقوا بأن موارد الدولة تحتملها دون أن يثقلوا كاهل الجمهور بالضرائب. ليشجعوا انتشار التعليم وخصوصًا التعليم الصناعي وتعليم الأناث. وليشجعوا كذلك المشروعات العامة وغيرها من أسباب التقدم على أن يكون هذا التشجيع بمقدار لا يقتضي الالتجاء الى فرض ضرائب جديدة ثقيلة ».

ليس بين الحاكم والمحكوم، عند انعدام روابط الجنس واللغة والدين والعادات، غير الرابطة المادية. هذه كلمة لورد كرومر التي تلخص كل ما جاء في العبارة التي نقلناها بل التي تلخص الى حد كبير سياسة انكلترا في مستعمراتها وفي البلاد التابعة لها. وهي التي تجعل لهذه السياسة الاستعمارية البريطانية امتيازاً وتفوقًا على غيرها من سياسة الدول الاستعمارية الاخرى. فليس من أغراض السياسة البريطانية الاساسية أن تنشر الثقافة الانجلوسكسونية في البلاد التي تحكمها. وليس من غرضها أن تنشر فيها مبادىء الثورة الفرنسية ولا أن تحمي فيها الهيآت الدينية المسيحية. كل ذلك قد يحدث بطبيعة تفوق النفوذ الانكليزي. لكنه ليس غرضًا أساسيًا مقصوداً لذاته. انما الغرض الاساسي هو تلك الروابط المادية بين انكلترا وسائر أجزاء

الامبراطورية . ولتكون هذه الروابط متينة مأمونة العواقب يجب أن لا تكون فائدتها لانكلترا وحدها ، بل يجب أن تشعر البلاد المحكومة بأن لها من ورائها فائدة محسوسة اول مظاهرها نقص النفقات العامة نقصاً يترتب عليه تخفيض الضرائب وزيادة رفاهية المحكومين زيادة تشعرهم الطمأنينة الى حاكميهم .

وقد اتبعت هذه السياسة في مصر بدقة تامة مدة وجود لورد كرومر بها . ويمكن أن يقال انها اتبعت الى ما قبل الحرب العامة . لكن هذه الحرب أدت الى انقلاب كان من وراءه أن غير المصريون من طابعهم القومي على ما ورد في عبارة لورد كرومر . وكان من وراء ذلك ان اعلن استقلال مصر . أما السودان وحكومته في الخرطوم فما تزال السياسة الجارية فيه هي هذه السياسة التي رسمها لورد كرومر في كلمته السابقة .

فمع ان كثيرين من المقيمين بالخرطوم يشكون من فداحة الضرائب التي يؤدونها ، والتي تبلغ ربع قيمة ريع المباني القائمة بها ، تعمل حكومة السودان على ان تكون الضرائب في سائر انحاء البلاد مخفضة حتى لا يشعر أهل السودان بثقلها . وليس يضير السياسة البريطانية أن تكون ضرائب الخرطوم فادحة وا كثر المقيمين في الخرطوم ، كما رأيت من قبل ، ليسوا سودانيين ، بل ا كثرهم موظفون وتجار من المصريين والسوريين والأروام وغيرهم . وهؤلاء لا شيء من الخطر في أن تعني

الحكومة بتخفيض الضرائب التي يدفعونها ويكفيهم أن تعني بتوفير كل اسباب الراحة والطمأنينة لهم .

وتخفيض الضرائب بالنسبة لأهالي السودان أنفسهم موضع عناية دائمة . وقد عهد بها وبنظام أعباء السودان المالية وميزانية ايراداته ومصروفاته الى لورد شستر أحد اكابر الاقتصاديين والماليين الانكليز/ وبرغم ما أبداه من ميل الى ترك هذا المنصب الشاق فان رجاء حكومة السودان اياه أن يبقى لمصلحة السودان ولمصلحة الامبراطورية كان اكبر على نفسه أثراً من ميله الخاص ، فبقي بالخرطوم ينفق اكثر بكثير من المرتب الضخم الذي يتقاضاه راضيا بالحياة في هذه البلاد القاصية ليخدم الامبراطورية وليخدم السودان معها .

تخفيف عبء الضرائب يترتب عليه نقص في ايراد الخزانة العامة . فاذا لم يقابل هذا النقص بموارد أخرى تدر ضرائب مباشرة أو غير مباشرة تعذر على الحكومة القيام بواجبها . وميزانية السودان تزداد عاماً بعد عام بسبب الموارد الجديدة التي ما تفتأ حكومة السودان تسعى لخلقها لتكفل استقلال السودان عما كان من قبل في حاجة اليه وما كانت مصر تؤديه له . وقد يدهشك ان تكون زيادة السكان من بين هذه الموارد الجديدة ؛ كما ان زيادة نشاط السكان من بين هذه الموارد ايضاً . وهاتان الزيادتان عنيت حكومة

السودان منذ زمان بعيد بتوفيرهما من طريق توفير اسباب الصحة في البلاد . فقد كانت حمى الملاريا مما يفتك بالسودانيين فتكاً ذريعاً وما يضعف فيهم اسباب النشاط . وما تزال هذه الحمى منتشرة في بعض انحاء السودان . لكن الحكومة قاومتها في مناطق كثيرة مقاومة شديدة انتجت ابادتها في هذه المناطق ابادة تامة . وما تزال الحرب المعلنة على الملاريا ناشبة وما تزال حكومة السودان تعمل على مطاردتها لمضاعفة عدد السكان ولمضاعفة نشاطهم .

كذلك عنيت الحكومة بمحاربة الزهري المنتشر في السودان انتشاراً مروعاً والذي يجني على الأعقاب جنايته على الجيل الحاضر . وانك لتعجب أشد الاعجاب بما تبدي الحكومة من نشاط وعناية في هذا السبيل . فهي تعالج المرضى بأجر زهيد الى حد يجعله في حكم المجان . وهي تنشر الدعوة لهذا العلاج في طول البلاد وعرضها بمختلف الوسائل . وأطباء الحكومة من السوريين وغير السوريين المنتشرين في اقاصي هذه البلاد الشاسعة يعاونون الحكومة المركزية بالخرطوم في هذه المجهودات خير معونة .

ومن طريق زيادة السكان وزيادة نشاطهم ترجو الحكومة أن تجد اليد العاملة بمقدار كاف لنشر زراعة القطن في البلاد . فملايين الأفدنة في الجزيرة الواقعة بين النيلين الأزرق والأبيض صالحة لانتاج القطن كما ان أراض واسعة اخرى صالحة لانتاجه .

واذا كانت التجارب التي تمت في الجزيرة الى اليوم قد أسفرت عن نقص تدريجي في المحصول بسبب الآفات التي تصيبه حتى أصبح الفدان الذي كان ينتج اول زرعه خمسة قناطير ونصف القنطار من صنف السكلاريدس لا ينتج إلا قنطارين وربع القنطار بعد اربع أو خمس سنين من زراعته فان شركة الجزيرة وحكومة السودان تأملان التغلب على هذه الآفات بالوسائل العلمية . ومتى كان ذلك ممكناً فمشكلة اليد العاملة هي المشكلة الكبرى . والتغلب عليها لا يكون إلا بزيادة السكان وزيادة نشاطهم

ومسألة آفات القطن هي الآن من المسائل التي تستنفد من حكومة السودان عناية كبرى . وقد تخصص للبحث في هذه الآفات وعلاجها أربعة عشر عالماً نباتياً من خير علماء الانكليز في هذا الامر يقيمون بالخرطوم كما ان في لندرة جمعية علمية نباتية تتضامن وهؤلاء العلماء في عملهم وأبحاثهم . فأذا نجح هؤلاء في مقاومة آفة القطن نجاح قلم الصحة في مقاومة الملاريا والزهري كفلت الحكومة محصولا وافراً من القطن يحقق الى حد كبير ما ترمي السياسة الامبراطورية اليه من رغد السودانيين وفائدة انكلترا فائدة كبرى .

وفي انتظار تحقيق هذه الغايات تعمل الحكومة لاكثار الماشية وجعلها من مواد التصدير ذات الايراد كما تعمل لترويج حاصلات السودان ترويجاً يتفق ومصلحة انكلترا .

ولكي تكون هذه المجهودات منتجة يجب أن يكون الأمن شاملا البلاد وأن تكون في سلم بعضها مع بعض. وهذا هو موضع عناية الحكومة الأداري. وهي في سبيله لا تلاقي من المشقات ما تلاقيه حكومة مقيدة بأنظمة خاصة ترمي الى حماية حرية الأفراد في صورها المختلفة. فنظام الأحكام العرفية ما يزال هو النظام السائد في السودان وكلمة الحاكم العام هي الكلمة العليا النافذة

☆ ☆ ☆

ويبدو في مصالح حكومة السودان المختلفة نشاط كبير. فأول ما نزلنا الخرطوم في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم السبت ١٩ يناير سنة ١٩٢٦ دعا مدير المخابرات – وهو كمدير الأمن العام في مصر – الصحفيين الى اجتماع عنده الساعة السادسة. وذهبت في الموعد بعد أن اجتازت السيارة بي شوارع تربة، وصعدت في بناء قليل الارتفاع قليل الوجاهة والمهابة على سلم ضيق من حجر الجبل حتى انتهيت الى غرفة المدير. فألفيت الصحفيين جالسين على مقاعد أدركت لأول ما رأيتها أنها أحضرت خصيصاً لهذه الغاية وان المكان ليس به عادة غير مقعد المدير. وكان هناك رئيس مصلحة التلغرافات. فلما انتظم عقدنا شرح مدير المخابرات برنامج أيامنا في الخرطوم وبرنامج حفلة افتتاح الخزان. فيوم الأحد للراحة من عناء السفر وليصنع كل به ما شاء. ويوم الاثنين عيد الملك والصحفيون مدعوون فيه لحضور

حفلة الشاي . ويوم الثلاثاء لا عمل فيه . أما الاربعاء ففي مساءه يسافر الجميع الى مكوار حيث يحضرون الحفلة ليعودوا الى الخرطوم صباح الجمعة . ويوم الاحد يسافرون قافلين الى حلفا فالقاهرة .

على أن الغرض من الاجتماع عند مدير المخابرات لم يكن مجرد معرفة البرنامج ، بل كان للتفاهم على طريقة ارسال البرقيات من مكوار ومن بركات ، من غير ان يرتبك الخط بكثرتها ، ومن غير أن يرتبك الصحفيون اذا اضطروا الى الذهاب لمكاتب التلغراف والى دفع الأجور . وانتهى الحال بالاتفاق على ان تعطى الخطب الثي ستلق في الاحتفال ظهر الأربعاء على أن لا تذاع إلا بعد القائها ظهر الخميس . وكان ذلك يسيراً بأعطاء الأشارة الى مصلحة التلغرافات في القاهرة وفي لندرة كى لا توزع الخطب الا بعد صدور أوامر أخرى . واتفق كذلك على أن يرسل كل مندوب من مندوبي الصحافة عدداً معيناً من الكلمات لا يتعداه حتى لا يزدحم الخط وتتأخر الرسائل ، وعلى أن يدفع كل صحفي تأمينا بالخرطوم فلا يضطر الى الذهاب بنفسه الى مكتب التلغراف في مكوار وبركات بل ترسل هذه المكاتب بمندوب من قبلها يتلقى التلغرافات من الصحفيين

وفي صباح اليوم التالي ذهبت اقابل رئيس مصلحة التلغرافات لأدفع التأمين ولنتم التفاهم على ما اتفقنا بحضرة مدير المخابرات عليه . وكان معي صحفي ذهب لمثل الغاية التي ذهبت اليها ، فألفينا غرفة هذا الرئيس

الانكليزي غاية في البساطة ولم نجد عنده ما نجلس عليه مما اضطره لاستعارة مقاعد من الغرف المجاورة . ولم يطل بيننا الحديث ولم يعد الغاية التي قصدنا اليه لقضائها ، ففي دقائق نادى اليه الموظفين المختصين فجاؤا لنا بالتذاكر الصحفية ، وتسلموا مبلغ التأمين الذي أردنا دفعه وتركنا المكتب بعد دقائق معدودة . وعلى أثر خروجنا أخذ أصحاب المقاعد مقاعدهم .

ونزلنا من عندهم فمررنا برئيس مكتب بريد الخرطوم،وهو مصري من الاقباط له بالسودان أكثر من عشرين سنة،ومع ما قابلنا به من البشر والحفاوة لم نجد عنده هو الآخر مقاعد نجلس اليها . ولما لم يكن لنا عنده عمل خاص استأذننا وظل منصرفاً لعمله مكباً عليه.وسألته عن ساعات العمل فأذا متوسطها في اليوم بين ست وثمان . لكنها مع هذا الانكباب على العمل تكفل انجاز حظ منه عظيم .

وهذا النشاط تشهده في غير هذين من مصالح حكومة السودان. ولعل النظام العرفي الذى تخضع له هذه البلاد والذي يجعل كلمة الحاكم العام العليا في كل شيء له أثره في هذا النشاط الدائم . ولئن صح هذا لكان مصداقاً لأن المبادىء المطلقة لا وجود لها في الحياة . فليس شيء خيرا مطلقاً وليس شيء شراً مطلقاً ، بل في كل شيء من الخير والشر والنفع والضر نصيب . ومن استطاع أن يغلب جانب الخير في شيء من الأشياء أو في نظام من النظم فذلك العامل الحكيم

على ان هذا النشاط الذي رأيت لا يتعدى ما تقضي به الروابط المادية التي أشار اليها لورد كرومر في كلمته التي صدرنا بها هذا الفصل. فكل ما سوى ادارة شؤون البلاد والعمل لزيادة انتاج اهلها لا يظهر له في حكومة السودان بالخرطوم أثر كبير . وقد رأيت في العطبرة كيف تقف المدارس التابعة للحكومة عند تخريج صغار الموظفين ومن يقومون ببعض اعمال الدولة الحكومية كالكتابة والتلغراف . وكيف تقف مدرسة الامريكان عند تعليم الابناء بما لا يزيد عن مقابل السنة الثالثة الابتدائية . وعناية الحكومة الرئيسية في الخرطوم بشؤون التعليم لا تتجاوز مثل هذا الذي رأيت عند العطبرة كثيراً . ففي الخرطوم حقاً كلية غردون . وبها مدرسة للطب انشئت حديثاً وبنيت على طراز كليات انكلترا . لكن التعليم في كلية غردون لا يتعدى التعليم الثانوي على نظامه القديم وبرامجه القديمة في مصر ؛ أي انه لا يتعدى أن يكون وسيلة لتخريج موظفين أرقى من الموظفين الذين تخرجهم مدارس العطبرة وغيرها من البلاد الأخرى في السودان . ومدرسة الطب لا تزال مدرسة حديثة افتتحت منذ عام واحد وطلبتها لا يزيد عددهم على اثنى عشر طالباً وما يزال نظام تعليمهم غير محدد ، وهو يجب أن يتفق مع السياسة العامة التى ترمي إلى اقامة العلائق المادية الحسنة بين الحاكمين والمحكومين ليس غير

وقد يكون لحكومة السودان العذر اذا تشبثت بهذه السياسة في

السودان . فالسودان بلاد واسعة مترامية الأطراف وأهلها ما يزالون على جانب من السذاجة عظيم . وميزانيتها لا تتجاوز الى اليوم خمسة ملايين برغم ما بذل من العناية لتنظيمها وزيادة ايراداتها . وما تزال طرق المواصلات فيها قليلة برغم سكة الحديد التي انشأها الجيش المصري بين حلفا والخرطوم وبرغم المنشآت التي تمت بعد ذلك فوصلت ما بين الخرطوم والأبيض وما بين العطبرة وبور سودان وكسلا . وما لم توطد الحكومة أركان الأمن في البلاد وتشعر المحكومين بأنها تجمع في معاملتهم بين السلطان عليهم والبر بهم فليس يسيراً عليها ان تحقق مصلحة الامبراطورية ومصلحة السودان بالتبعية لها .

فأما شعور المحكومين بسلطان الحكومة عليهم فمظهره القوة المسلحة التي تغلبت على التعايشي وفتحت السودان واخضعت عصاته. ولئن كانت هذه القوة الأولى مصرية فالانكليز يعتقدون أن وجودهم على رئاستها يجعل أهل البلاد يعتقدون أنهم وحدهم هم أصحاب الكلمة سواء أبقيت هذه القوة في البلاد أم اخرجت منها . وأما بر الحكومة فمن مظاهره ما قدمنا من عنايتها بالسكان وصحتهم ونشاطهم وتخفيضها الضرائب المباشرة عليهم ، كما ان من مظاهره هذه الألقاب وكسى التشريفة التي وقفت على شيء من أمرها يوم عيد الملك والتي يحرص زعماء السودان ورؤساء قبائله عليها حرصاً شديداً

يدل على انها ذات تأثير شديد على الذين يقعون تحت رئاستهم أو زعامتهم من السودانيين . روى لي كبير من الموظفين بحكومة السودان ان الحكومة اذا غضبت على أحد هؤلاء الزعماء استردت منه كسوته . ولا تسل عن المساعي التي يبذلها هذا الزعيم في سبيل استعادة هذه الكسوة ، ولا تسل عن العهود التي يقطعها على نفسه متى عادت الكسوة اليه . ثم ان من هذه الكسي زيًا قديمًا أحمر اللون عدلت عنه الحكومة الى الزي الكحلي . والكسوة اذا بليت ردها صاحبها الى الحكومة فأبدلته منها غيرها . وقد لوحظ ان من اصحاب الكسي الحمراء من يفضل ارتداء القديم منها على الزي الجديد لأن الجديد كحلي ولأن الأحمر أكثر بهجة ولعله أشد أثراً على المرؤوسين

وليكون الناس أكثر شعوراً ببر الحكومة بهم تنظم الحكومة الدعوة في انحاء البلاد للاشادة بهذا البر ولتذكير الناس بما كانوا خاضعين له من قبل من الوان الاضطهاد وما كان ينتابهم في الماضي من مظالم ومغارم وعلل . ولما كانت الصحافة قليلة الجدوى في بلاد قل فيها من يقرأ ويكتب كانت الدعوى الشفوية على لسان موظفي الحكومة والمتصلين بها من الذين يتكلمون لغة البلاد ، سواء منهم من كان من أهلها ومن كان أجنبيًا عنها ، هي العمدة في هذه الدعوة التي تساعد الى حد كبير على تأييد النظام والطمأنينة في ربوع السودان .

على أن بعض الدعاة يغلون في دعوتهم الى غير حد . واذا صح ما سمعته من أن احدهم ينسب وجود مرض الزهري في السودان الى أيام دخول العرب فيه منذ قرون ماضية كان ذلك أدل ما يكون على المبالغة والاغراق فيها . فأن هذا المرض–الذي يسميه كثير من أهل الريف في مصر « بالافرنجي » إشارة الى دخوله مع الافرنج أيام الحملة الفرنسوية في أواخر القرن الثامن عشر– لم يعرف في مصر ولا في السودان قبل ذلك التاريخ . دع جانباً اغراق الدعاة في تشويه الحكم المصرى فى السودان فهذا ما سمعته من كثير من كتاب الانكليز وخطبائهم في انكلترا وهذا ما سنعود اليه في فصل مقبل .

على ان عدم جدوى الصحافة في بلاد كالسودان لم يمنع حكومة السودان منذ الفتح من أن تشمل بعنايتها جريدة كانت من قبل ذات اتصال بجريدة المقطم فى مصر. تلك «حضارة السودان».وقد ظلت هذه الجريدة متصلة بالمقطم الى أن اتجه نظر الحكومة الانكليزية لنزع السودان من نفوذ مصر. من حينئذ استقلت حضارة السودان وصارت متصلة بحكومة السودان وعهد بتحريرها الى واحد من أهالى السودان . الذين تعلموا فى الأزهر .

وهذه خطوة فى تنفيذ السياسية البريطانية التى تقضى بأن تكون وظائف حكومة السودان للسودانيين قدر المستطاع وخطوة . ومثلها أن حرمت الحكومة على غير السودانيين الالتحاق بكلية غردون بعد ان

كان المصريون والسوريون يلتحقون بها . والغرض من ذلك أن يزداد عدد المتخرجين من هذه الكلية من أهالى البلاد لتسند اليهم الوظائف الصغيرة فى حكومة بلادهم . لكن هذه ما تزال خطوات ضيقة. ومايزال أكثر موظفى حكومة السودان من المصريين ومن السوريين .
ورغم ما كان من إخراج عدد كبير من الموظفين المصرين بعد أن نشرت حكومة العمال البريطانية الكتاب الأبيض الذي صدر في ١٧ كتوبر سنة ١٩٢٢ بتوقيع رئيسها مستر ماكدونالد على أثر المفاوضات التي جرت بينه وبين رئيس الحكومة المصرية في ذلك الوقت سعد باشا زغلول وبعد الأنذار الانكليزي الذي وجهت به حكومة المحافظين الانكليزية في ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٢٤ على أثر مقتل حاكم السودان العام السير لي ستاك باشا – برغم ذلك فما زال فى خدمة حكومة السودان عدد عظيم من المصريين الذين لم يظهروا ولم يكن لهم دور في الحركات السياسية التي قامت في السودان سنة ١٩٢٤ . وبعض هؤلاء المصريين مسلمون وأكثرهم مسيحيون .
أما السوريون فما زالوا في خدمة حكومة السودان كما كانوا من قبل وما زالت الثقة بهم اكيدة مطمئنة. وهم لا ريب أهل لهذه الثقة لأنهم يقومون بخدمة الحكومة القائمة خير قيام . ولم لا وليست لهم ولا لبلادهم في السودان مطالب سياسية تحرك منهم عصباً أو عاطفة يخشى أن يكون لها في السودان أثر ، وليست تتحرك أعصابهم ولا

عواطفهم إلا لما يصيب بلادهم . فهم دائمو التحدث عنها والحنين لها ، كما أن كثيرين منهم ما يفتأون يمدونها بما يوجبون على انفسهم إمدادها به

وهؤلاء الموظفون في حكومة السودان من السوريين والمصريين يعملون بما يعمل به الرؤساء الانكليز من نشاط وهمة . وهم ينفذون السياسة التي يرسمها هؤلاء الرؤساء بذمة ودقة . وهذه السياسة تتلخص فيما نقلناه في صدر هذا الفصل من كتاب اللورد كرومر : تحسين العلاقات المادية بين الحاكمين والمحكومين . وهي من غير نزاع خير سياسة يمكن اتباعها في بلاد لا تجمع الحاكم والمحكوم فيها رابطة من جنس أو لغة أو دين

يوم بأم درمان

كان ذلك يوم الثلاثاء ١٩ ينـاير سنة ١٩٢٦ . قمت مبكراً فبصرت بأشعة الشمس تطل من خلال النافذة المقفلة طول الليل وكأنها يد أم رؤوم تملس على ابنها بحنان وعطف كي توقظه من نومه . وسمعت وما أزال ناعماً بدفء الغطاء اصوات العصافير في حديقـة الفندق وكلها البهجة بمشرق الشمس وبعود النهار والنور . وجاء الخادم بالشاي والبسكوت فطلبت اليـه أن يحضر طعام الافطار بالغرفة حتى لا أضيع الوقت وكي أدرك وصديقي ترام الخرطوم الذي يقوم في منتصف الساعة التاسعة قاصداً المقرن لتقلنا الباخرة بعد ذلك عبر النيل الى شواطيء أم درمان

وكنا عند المقرن حوالي الساعة التاسعة . وانتقلنا من الترام الى الباخرة وانتقل معنا كثيرون من السائحين ومع بعضهم عربة اتوا بها ليطوفوا أم درمان فيها ، كما انتقل مع جماعة من الأهالي الحمر والدواب . وظل هؤلاء في الطابق الأسفل بينما صعد الذين يدفعون أجر الدرجة الأولى الى الطابق الأعلى . وتحركت الباخرة على هون وفي هدأة وسكون بعد ما انقضى ما كان لصفيرها قبيل تحركها من زفير في الهواء وشهيق

واستدارت الباخرة فاذا أم درمان ما تزال في الحجب وإذا اكثر المسافرين يوجهون ابصارهم صوب الخرطوم يطمع كل منهم في أن يشملها جميعاً بنظرة واحدة . وتبدى الشارع الممتد على شاطيء النيل الأزرق قامت عليه الاشجار الضخمة مكللة الهام بخضرة زاهية، كما تبدت من ورائه بعض مباني الخرطوم وطرقها كأنها صوامع نساك نثرت في الصحراء على مقربة من واحة ذات خصب ونماء . وظلت الباخرة تستدير إزاء جزيرة توتي زهاء ساعة حتى إذاء قاربنا الشاطيء وجه المسافرون أبصارهم صوب عاصمة الدراويش .... ألا إن للذين يعجبون بالخرطوم لعذرا !. فهذه المدينة القديمة لايزين شاطيء نيلها الابيض ما يزين شاطيء نيل الخرطوم الأزرق من الشجر . بل يقع النظر عند مرسى الباخرة على رمال صحراوية انت مضطر كى تتخطاها إلى أن تغوص أقدامك فيها . فاذا جزتها بعد جهد و بلغت تراماً هو لترام الخرطوم صنو وتوأم صادفت عينك من المساكن والمباني ما يزور عنه بصرك لحقارته وقذارته . لكنك تشعر كلما سار الترام وتغلغل في المدينة انك في مدينة سودانية حقاً، وترى بعد برهة أن المباني الواقعة عند المورد عنوان سيء لأم درمان ، وأن فيها مثل ما في الخرطوم من المنازل والمتاجر والمناظر و إن لم يكن فيها ما في مقر حكومة السودان من اضواء الكهرباء ومن مظاهر المدنية التي أقامها

الحاكمون في مقر حكمهم للترفيه عن أنفسهم ولتتيسر لهم الحياة في جو وفي بيئة وفي سط لم يألفوها .

نزلنا من الترام عند متجر مصري من أهل اسوان عرفناه في الخرطوم . ولست أغلو ان أنا قلت ان هذا المتجر وبعض المتاجر الواقعة الى جانبه أجمل وأدعي للاحترام من أكثر متاجر الخرطوم . على أن ذلك ليس عجبًا وصاحبه يتصل بلانكشير مباشرة وعنده في مصر تجارة كبرى . وقد قابلنا بالترحاب وسألنا ان كنا نشرب « الجَبَنَة » ، والجبنة قهوة أهل السودان . وانتظرت لأرى أي نوع من القهوة يصنع هؤلاء الذين ما زالوا يعيشون عيش البداوة. واستعرضت أثناء انتظاري صنوف القهوة الساخنة والباردة مما يصنع في مصر وفي اوربا.فنحن في مصر نطحن البن ونضعه في الماء الى أن يغلى ثم نشربه ؛ أما في اوربا فيدقون البن حتى يتكسر ثم يصبون الماء الغالي في مصفاة وضع فيها البن كي يمر الماء به وينال خيره. وما دام أهل اوربا أكثر منا حضارة فهذا التدرج في صناعة القهوة يبعث الى الذهن ان أهل السودان يسفون البن سفًا . وكنت افكر في شيء من هذا حين جاءت « الجبنة » . أفتدري ما هي ؟ وعاء كروي من الفخار له فوهة ضيقة طويلة يوضع البن فيه بعد أن يدق حتى يتكسر ويغلى بعد ذلك في الماء ثم تغطى فوهة الجبنة بقطعة نظيفة من ليف النخل كي تحجب البن المدقوق كما تحجبه مصفاة الفضة أو المعدن حين

يصفي الماء. وهذه هي قهوة أهل السودان! أرأيت. هي إذن كقهوة الاوربيين سواء بسواء لا فرق بينهما الا في الاناء التى تصنع فيه. وإذن فقد تتفق ارقى صور الحضارة مع أبسط صور البـداوة ثم لا يكون بينهما فرق الا في الصورة والمظهر. ويكون هذا المظهر وحده هو الذي يخول لأصحابه حق حكم الآخرين والتحدث عليهم.

وقمت وصاحبي أرود عاصمة الدراويش لأرى بلداً سودانياً بالفعل. ما أكبر الفرق بينها وبين الخرطوم!.. إن بها لأزقة ضيقة تنفر الخرطوم وشوارعها الواسعة من ضيقها، وان بها من الصناعات الوطنية الحقيرة ما لا يتفق ومظاهر النظام الانكليزي. وكل ما استحدث فيها من أسواق كبيرة ومن بعض شوارع وطرق واسعة لم يغير سحنتها كمدينة سودانيـة. انظر الى الزقاق الضيق المسقوف بألواح من الخشب والذى يعيد الى ذهنك منظر الخيمية والفحامين بالقاهرة. هذا هو مقام صناع المراكيب السودانية. وصنـاع المراكيب السودانية لا يستوردون الجلد مدبوغاً ولا يلجأون في دباغته الى أحدث الوسائل العلمية، بل هم يكتفون اكثر الأمر بألقاءه في الشمس حتى يجففه لظاها. ومن الجلد الذي لم يجف بعد ما هو ملقي أمام دكاكين أهل هذه الصناعة. الست تشعر الآن بريحه في انفك وبأثر ذلك في جوفك وأمعائك؟!. وانظر الى ذلك الشارع الكبير عنوان المدينة. أليس يحيي ذكرى شارع النحاسـين في أواخر القرن الماضى.

فهؤلاء العطارون قد برزت دكاكينهم في الشارع وجلس كل واحد منهم في هيبة ووقار كأنما هو قاضى الشريعة . وهذا دكان جوهري ما تكاد ترى فيه جوهرة واحدة وان رأيت بعض آنية دقيقة وصاحبه فيه جالس وكأنه أحد يهود الصاغة . ثم قف الآن قليلا فمتع ناظرك بصناعة وطنية تجذب السائحين من الأفرنج وغير الأفرنج اليها . هذه صناعة العاج . فهذا سن فيل قد جوف ورسمت فيه فيلة تصغر واحدا بعد الآخر كلما قربت من ناحية السن الدقيقة . وهذه زخارف ظريفة من العاج مموهة بالذهب أو بالفضة . لكن هذه الصناعة الوطنية الظريفة الثمينة ما تزال متأخرة عن مثلها في مصر تأخراً كثيراً . وما تزال توضع في دكاكين لا سبيل لمقارنتها بمثل متاجر الخرطوم. دعك الى جانب هذا من كثير من مظاهر البؤس والفاقة مما جئنا على وصف بعض منه عند أسواق الخرطوم وعند مخازن حبوب سكة الحديد.... مع هذا كله فأم درمان مدينة لها حياة المدنية . وفي هذه الأزقة والطرق والشوارع معابد تحدث عن أجيال وأجيال . ولهذه المباني القديمة الغير المنتظمة تاريخ ، عدم انتظامها أول شاهد عليه . كلا ! ليست أم درمان عزبة أو مزرعة لمالك خططها كما شاء له هواه ، ولكنها قدس لقبور كدست فوق قبور . وهل في غير القبور حياة وحضارة ؟ بل إنك لترى نفسك وأنت أمام فضاء عظيم فيها لا يفصل به وبين الطريق الا حاجز منخفض من بنا، قد شعرت بشيء من

الجلال يملأ نفسك ومن الهيبة تفيض بها جوانحك . ذلك حين تقف أمام جامع المهدي حيث يوجد أثر قبره . فهذا الجامع ليس كغيره من المساجد . ليس كمسجد الخرطوم ومسجد أم درمان وأمثالهما مما ترى في بلاد المسلمين طرا . بل هو فضاء منبطح ما تكاد تحيط العين به في نظرة لعظيم سعته ، وليس بينه وبين الطريق الا اسوار بلغ من قلة ارتفاعها أنها لا تحجب أرض الفضاء الذى تحيط به عن عين الواقف على مقربة منها . لكنه جامع المهدي . وبحسبك أن يذكر هذا الاسم حتى يمتلأ هذا الفضاء أمامك بالصور والمعاني وحتى ترى بعين بصيرتك جيلاً كاملاً من أهل هذه الاصقاع وقد حشد في هذا المكان وخر ساعة الصلاة ساجداً مؤمناً بأن إمامه وملكه رسول الله أوخليفة رسوله او هو الذى تجسد لهدى الناس وخلاصهم. أجل . ففي هذا الفضاء جمع المهدي أهل السودان جميعاً جيلا بل أجيالا . وفي أم درمان كانت مئآت الالوف مما زاد على المليون وعلى المليونين أحياناً ،وكلهم يؤمن بالمهدي ويرى فيه روح القدس .وما يزال هذا الفضاء فضاء كما كان . ولئن دنسته أقدام لا تؤمن قلوب أربابها بقداسة المهدي مثل ذلك الايمان القديم فالشمس التي طلعت على المهدي وعباده ما تزال تطلع فتبعث من أشعتها ما يحيي أمام الخيال كل هذا المنظر القوي الحي منظر المؤمنين أشد الايمان المتعصبين أشد التعصب يحيطون بمعبودهم يجلونه ويقدسونه . وما يزال

السودانيون وغير السودانيين اذ يمرون بهذا المكان ويذكرون هذا التاريخ تمتلىء نفوسهم اكباراً وإجلالا . فاذا ذكروا كيف اجلى المهدي جنود مصر عن السودان وكيف امتلأ رأسه بأحلام الغزو والفتح باسم الجهاد وكيف عاجلته المنون بعد ذلك ، ثم كيف دنس قبره بعد اعادة فتح السودان وكيف ذرى جثمانه ومثل بجمجمته ، اذن لرأوا هذا الفضاء من الأرض مملوءاً بالأرواح ولتمثلوا فيه كل معاني ذلك العصر القريب منا والبعيد عنا والذي يخلع على أم درمان معنى اضاعت الخرطوم ما فيها من مثله بعد عمارتها على الصورة الحديثة التي نراها بها

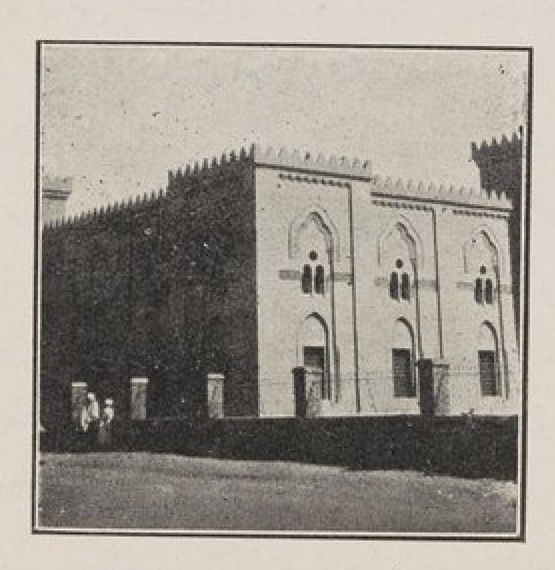
على ان رجلاً من الذين عمروا هذا الفضاء أيام كان يدوي باسم المهدي وكان له فيه يومئذ شأن يذكر ما يزال حياً يرزق . ذلك هو عثمان دقنه . فقد كان هذا الرجل قائداً ينشر دعوة المهدي في شرق السودان بينما كان المهدي ما يزال في الابيّض وما تزال دراويشه بعيدة عن الخرطوم وعن أم درمان . فلما استتب له الأمر بعد ما اضطر المصريون بمشورة الانكليز الى التخلي عن السودان كان عثمان دقنه في طلائع قواته وقواده . ولما اعيد فتح السودان بقيادة السردار كتشنر بعد ثلاثة عشر عاماً من وفاة المهدي قبض على عثمان دقنه أن كان أمره قد استفحل وشوكته قد قويت . وظل هذا الرجل في السجن وما يزال فيه . وكانت حكومة السودان

قد أذنت له في اداء فريضة الحج منذ عامين فسافر مع شاب من أقربائه يريد بيت الله الحرام راجياً أن يقضي بمكة ما بقي من أيامه . فلما نشبت الحرب بين سلطان نجد وملك الحجاز عاد ادراجه الى السودان وردته الحكومة فيه الى معتقله . وهو قد بلغ اليوم من الكبر عتياً . وانك لتشفق على رجل مثله تحدرت به الشيخوخة الى أحلام الطفولة من جديد حين تسمع ما كان من قصته مع السردار ستاك باشا حين زاره عام ١٩٢٤ ، فلما سأله عن شأنه وما يمكن أن يشكو منه وما يمكن أن يشتهي كان جواب العجوز المتهدم الذي اهتز السودان من أعماله وأعمال رجاله سنين تباعاً : لست أشكو إلا من شيء واحد . ذلك انهم كانوا يجيئونني من بلح التمر كل يوم بأربعين ومائة بلحة . أما الآن فلم يعودوا يجيئونني إلا بتسعين . هذا كان كل همه وتلك كانت شكواه . وفي عد التمر الذي يؤتى له به كل يوم كان يقضي وقته . وسأل السردار في هذا الأمر الخطير فعلم انهم كانوا يجيئون له بتمر صغير ثم رأوا هذا التمر الكبير خيراً له . قال السردار أعيدوا اليه بلحاته الصغار كما كانت اربعين ومائة ولا تكلفوا عقله وأعصابه كل هذا الاجهاد الذي شكا اليوم بسببه

هذه البقية من عثمان دقنه ، هذا الطَلل الذي يندب التمرات التسعين بعد ما كان صاحبه في الشباب لا يعرف غير البطش والثورة

هو الآن خافت كذلك الفضاء الصامت اليوم بعد أن كان اسم الله واسم المهدي يدويان فيه كل يوم دوي الرعد وبعد أن كان له ما للرعد من نذر السماء .

فاذا أنت جاوزت هذا الفضاء الممتلىء بصور الماضي وسرت في طريقك متجهًا الى وسط أم درمان رأيت عن يمينك مسجد ام درمان الذي شيد كما شيد مسجد الخرطوم على طراز حديث ولما يشهد من عبر التاريخ ما يحدث به وهو ابن عصرك ومن عمارة أقرانك



مسجد ام درمان

٭٭٭

وأم درمان بلدة سودانية . صحيح أنك ترى فيها بعض ما ترى

في الخرطوم من متاجر للسوريين والمصريين ولجماعة من الاوربيين.
لكن هذه المتاجر ليست قوام حياة أم درمان ، بينما هي قوام حياة الخرطوم . ثم أنت ترى أبداً الى جانبها مظاهر نشاط السودانيين أنفسهم . بل أنت ترى على هذه المتاجر مسحة من معنى السودان لا تراها على متاجر عاصمة السودان . فاذا أوغلت قليلاً في قلب البلد رأيت الحيـاة السودانية بكل معانيها . ورأيت شيئاً عجباً .
فالسودانيون في هذه الحياة السودانية ليسوا كأمثالهم في جو الخرطوم.
فقراء الخرطوم من السودانيين تبدو عليهم وحشة الفـاقة وألمها وبؤسها . أما فقراء ام درمان فلا يأبون ابتسامة للحياة تسفر عن اسنانهم البيضاء الناصعة . ولعل السر في ذلك ان هؤلاء يلتئمون مع جو بلادهم فليس بينهم وبين ما حولهم من الناس والكائنات مثل ما بين اولئك وما ينعم به الحكام من أسباب الرغد والرفاهيـة .
أو لعله الشعور بالحرية أن ليس بينهم وبين الحكام من الروابط القريبة ما يجعلهم دائمي الاحساس بمراقبتهم اياهم مراقبة ضيقة . على كل حال فان السودانيين والسودانيات هنا اكثر مرحاً وأشد بالحياة اغتباطاً . مررنا بسودانيات تبيع (الرهط) فوقف صاحبي يساومهن . والرهط لباس الفتيات يأتزرن به ما دمن أبكاراً .
وهو حزام من جلد يبلغ عرضه قيراطين أو ثلاثة قراريط ، تتدلى منه خيوط رفيعة من الجلد ايضاً ، وهي كثيرة كثيفة ، فإذا شدت

الفتاة حزام الرهط على خصرها سترتها هذه الخيوط حتى ركبتها . وليس يحضرني للرهط شبه فيما تقع عليه عين اهل الحضارة إلا لباس بعض الراقصات في الاوبرا وغيرها من المسارح الكبرى . غير أن بينه وبين لباس الراقصة ما بين (الجَبَنَة) وإناء القهوة الفرنسية من فرق . فاذا تزوجت البكر السودانية خلعت الرهط واتزرت بالقماش مكانه .

وقف صاحبي يساوم بائعات الرهط و يسائلهن ما بال هذا الرهط أحمر مصبوغ وذلك الآخر على لونه الطبيعي ؟ فابتسمت الفقيرة السودانية ابتسامة قانعة وجاهدت لتفهمنا واجتهدنا لنفهم ان هذا المصبوغ أحط في صنف جلده من الآخر وهو لذلك أقل منه ثمناً . ولتزيدنا اقتناعاً تناولت من تحت مقعدها جلدين أحدهما أرق من الآخر حالاً وهو الذي يصبغ لتواري الصباغة سوآته . ثم أمسكت بيمناها نصلاً لسكين قديم ولفت بعض الجلد على ابهام قدمها وشدته اليها بيسرى يديها وأرادت أن ترينا كيف تصنع خيوط الرهط المتدلية من حزامه . كل ذلك من غير أن تفارق فاها ابتسامته الناطقة بالطمأنينة لشظف العيش بل لبؤس الحياة .

قال صاحب من السوريين المقيمين في أم درمان كان معنا : ليت الحظ يتيح لكم أن تشهدوا حفل زواج هنا . كنتم فيه ترون صورة ظريفة من صور الحياة السودانية . وكنتم تدهشون مما فيه من

شبه بالحفلات الاوربية مع اسراف في التقدم والتبريز على الاوربيين.
ففي هذا الحفل يجتمع بنات الطبقة التي منها العروس فيرقصن ويغنين.
ثم يتقدم الخطيب الى عروسه يراقصها وهي إذ ذاك عارية لا يسترها
إلا هذا الرهط الذي ترون . فاذا تم دور الرقص أمسك بيده سبعاً
من خيوط الرهط فجذبها جذبة واحدة . فان اقتلعها فهذا الرجل الذي
تفخر به عروسه . أما ان عجز عن اقتلاعها فله ولها العار والخجل .
وكثيراً ما يترتب على العجز من جانبه فسخ الزواج .

قال صاحبي الذي جاء واياي من الخرطوم :

— وما نزع خيوط الرهط الى جانب تزاوج شبان حمر الهنود ؟
فلست أذكر أين قرأت عنهم ان الشبان الذين يريدون الزواج
يحضرون الى حلقة تقف حولها بنات القبيلة ثم يتقدم كل شاب الى
من ينزع ما حول أحد ضلوعه من اللحم وتمر حول الضلع حلقة من
حديد يشد اليها حبل متين يربط بعد ذلك الى شجرة او نحوها .
وبعد ذلك يتراجع الفتى للوراء بكل قوته حتى ينكسر ضلعه وتخرج
من صدره حلقة الحديد . وأي الشبان كان اكثر احتمالاً للألم حتى
تمام هذه العملية القاسية فله أن يختار من بنات القبيلة من شاء . أما
هنا فما أحسب جذب خيوط الرهط السبع وانتزاعها إلا ايذاناً بأن
أيام الرهط انتهت وآن للفتاة أن تكون امرأة .

ثم تابع السوري المقيم بأم درمان حديثه :

— لعلك لم تعد الحق في شيء . فقد سمعت ان الفتيات كثيراً ما يحززن الخيوط السبع قبل رقصة العرس حتى لا تستعصي على الخطيب فلا يكون انتزاعه إياها إلا وسيلة اعلان انخراط عرسه في سلك النساء وخروجها من سلك البنات .

***

وتركنا السوق وصانعات الرهط و بائعاته وعدنا أدراجنا لتناول طعام الغداء عند تاجر سوري ظريف دعانا الى بيتـه . وبيت هذا التاجر مثل لغيره من بيوت السودان . صنع من اللبن أو من « الجالوس » وجعلت نوافذه على الجهتين البحرية والقبليـة لتغير الهواء الصحي في السودان إذ يكون شمالياً أحياناً وجنوبياً أحياناً أخرى . و به فضاء غرس صاحبه فيه بعض الاشجار والزهور لتكون للعين بهجة وحين القيظ ظلاً يتقي الانسان به لافح الهجير . وكان الى جانب هذه « الجنينة » الظريفة فضاء آخر متسع خصص لتربية الديكة الرومية وجدنا به حوالي الخمسين أو الستين منها حين درنا نرى البيت ومشتملاته .

ويعيش هذا التاجر في سعة من النعمة و ينهل من صنوف المتاع المختلفة بما يرفه عنه الوحدة ويهون عليه العيش في بلاد نائية يبتغي الثروة كي يعود بها الى أهله ومسقط رأسه فيكون فيه موضع الاعزاز

والأكرام . فعنده « فونوغراف » لطيف جمع له من مختلف « الاسطوانات » أشكالا وألوانا، وفي ركابه نجار سوري يقيم بأم درمان هو الآخر و يتقن اللعب على الكمنجة اتقانًا حسنًا . وكان معنا بين الذين دعوا الى الغذاء سوري آخر جميل الصوت . وانتظمت الحلقة وبلغت من البهجة أن نسى الانسان أين هو وان خيِّل اليه أنا في إحدى بلاد سويسرا نتمتع من بديع جمال الطبيعة بخير ما يستمتع به الحس الظمىء الى معاني الجمال . فلما بدأت موليات النهار تولي ذكرنا انا مدعوون الى طعام العشاء عند أحد معارفنا بالخرطوم فشكرنا صاحب الدعوة وسرنا حتى محطة الترام الذي أقلنا الى الباخرة فإلى المقرن فالى دار صاحبنا

وترك هذا اليوم الذي قضيته بأم درمان في نفسي أحسن الأثر. فقد رأيت مدينة سودانية حقًا. ورأيت حياة سودانية يشعر أصحابها أنهم في بلدهم وان الغريب عنهم نازل عندهم وأنه في حمايتهم وهم ليسوا في حمايته شأن السودانيين المقيمين بالخرطوم . وهذه الحياة السودانية في أم درمان هي التي قضت على ما كان من محاولات القضاء عليها كمدينة ولجعل الخرطوم كل شيء . بل ان من الناس من يعتقد ان الجسر الذي ينشأ الآن بين الخرطوم وأم درمان سيزيد عمارة هذه المدينة وسيعيد اليها كثيراً من سلطانها أيام كانت عاصمة الدراويش . وما أظن واحداً من السودانيين الا يغتبط

لهذا ويسر به . بل أحسب ان الذين شعروا حين مقامهم في السودان بانعطاف قلوبهم نحوه ليشعرون هـذا الشعور وليحفظون من أم درمان لا من الحرطوم ذكر السودان الصحيح .

حفلة افتتاح خزان سنار

الاربعاء ٢٠ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة الثامنة والدقيقة اربعين مساء : القيام بالقطار المخصوص من الخرطوم الى مكوار لافتتاح خزان سنار رسمياً

الخميس ٢١ يناير سنة ١٩٢٦ منتصف الساعة التاسعة صباحاً : الوصول الى مكوار والى خزان سنار

الساعة الحادية عشرة صباحاً : حفلة الافتتاح

الساعة الرابعة بعد الظهر : مشاهدة وابورات الحليج ببركات

الجمعة ٢٢ يناير سنة ١٩٢٦ الساعة السابعة صباحاً : الوصول الى الخرطوم عائدين بعد الحفلة

هذه هي مواعيد السفر للحفلة الرسمية التي سافرنا جميعاً من مصر وسافر بعضنا من لندره الى الخرطوم لحضورها . ولقد وزعت علينا منذ وصولنا الى الخرطوم كراسة فيها هذه المواعيد وغيرها مما تقتضيه تفاصيل الحفلة كما احتوت على سائر مواعيد حركاتنا بالخرطوم

واذ كنا ضيوف معالي حاكم السودان العام فقد عنيت حكومة السودان اثناء الرحلة كلها براحتنا . لكنها كانت أشد عناية اثناء السفر من الخرطوم الى سنار والعود من سنار الى الخرطوم .

فأرسلت الينا في منتصف الساعة الثامنة من مساء الاربعاء ٢٠ يناير عربات كبيرة تنقل أمتعتنا كما أرسلت اوتومبيلات في الساعة الثامنة والربع كي نستقلها الى المحطة . وما كدنا نصلها في هذه الساعة التي أرخى فيها الليل سدوله على الوجود حتى الغينا جمعاً كبيراً من الرجال والنساء لا يتيسر تمييزه في هذا الوقت . فلما آذن للقطار أن يتحرك في الساعة الثامنة والدقيقة الاربعين ارتفعت أصوات هذا الجمع الحافل بزغاريد النساء وبشيء يشبه الهتاف من الرجال . واستمرت هذه الزغاريد زمناً طويلاً كان القطار يسير في اثناءها الهوينا مستديراً الى الشرق كي يحاذي النيل الأزرق ويتبع شاطئه حتى يصل الى سنار

هذه الجموع الحافلة وهاتيك النساء المزغردة لا تعرف جمهرتها الكبرى شيئاً من أمر خزان سنار . وربما اعتقد كثيرون ممن عرفوا عنه شيئاً انه شر لهم لأنه يحجز الماء فيما وراء ذلك البلد النائي حجزاً يحول دون فيضان النيل الأزرق على حياض أراضيهم كما كان يفيض من قبل فيدع لهم الفرصة التي يزرعون فيها الذرة . لكن هؤلاء الرجال حشدوا لأن حكومة السودان أرادت أن يحشدوا وهاتيك النساء زغردن لأن حكومة السودان أرادت أن يزغردن . وهم جميعاً واجبة عليهم طاعة أولي الأمر . ولهم في أهل مصر اسوة حسنة إذ

يحشدون لغـاية ولغير غاية في مواطن كثيرة حسب ما تملي به أهواء الحكام وشهوات السياسة .

وانطلق القطار يسري في دجى الليل ويخترق الظلمات وينهب الأرض ، وبتنا جماعة الصحفيين في شغل بتلاوة الخطب التي وزعت علينا والتي أعدت ليلقيها لورد جورج لويد مندوب انكلترا السامي وسر جوفري أرشر حاكم السودان العام واسماعيل سري باشا وزير الاشغال بمصر في حفلة الغـد . واضطررت أنا لنقل خطاب حاكم السودان الى العر بيـة اثناء سفر القطار لأنه لم يكن قد ترجم . فلما أتممته جعل مكاتب التيمس يسألني رأيي فيما حوته هذه الخطب وهو معجب بها ولها محبذ

وقمت الى مرقدي قبيل منتصف الليل فلما أيقظنا الخادم لتناول شاي الصباح كان النور قد انتشر في الأرجاء وتبدت من الجانبين سهول غامرة ظلت تحاذينا حتى وصلنا محطة سنار قبل الساعة السابعة . ثم تحرك القطار منها بطيئاً الى مكوار على مقربة من الخزان والى جانب المكان الذي تقام فيه الحفلة الرسمية .

ماذا أرى؟!!... ما هذه الألوف المؤلفة من خلق الله أهل السودان؟ وما هذه الطبول والزمور وما هذه الزغاريد تشق عنان الجو وما هذا العيـد الذي لبس فيه اولئك السود الأبيض الجديد ؟ و ما هذه الأعلام المصرية والبر يطانية يلعب بها نسيم الصبح العليل ؟ ما أظن

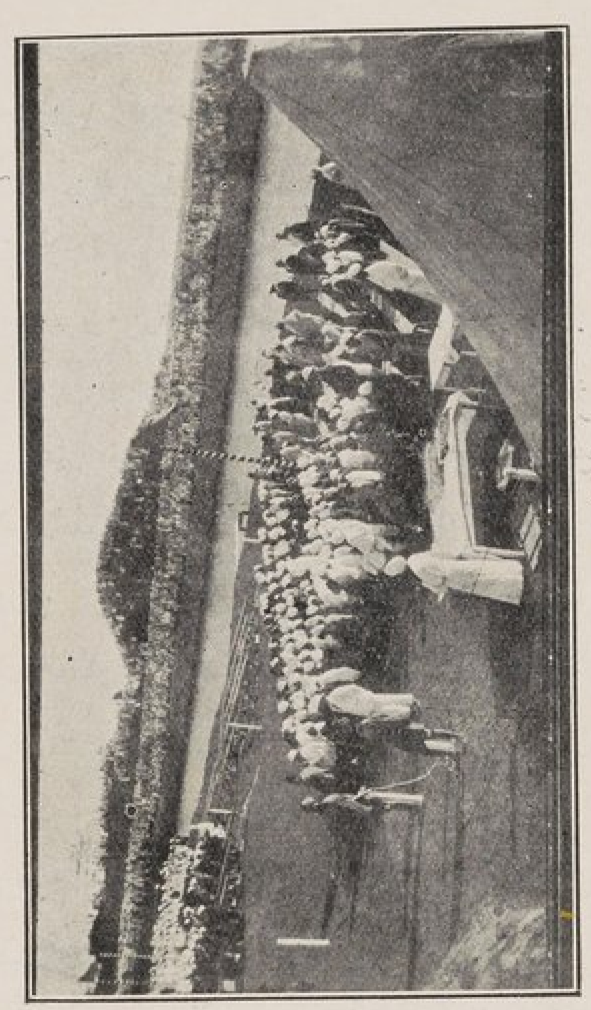
أكبر مدن أية دولة من دول الحلفاء كانت مائجة بالناس يوم وضعت الحرب الكبرى أوزارها موج هذه البقعة المحيطة بترعة الجزيرة وخزانها ؟.. أفحق ان اولئك كلهم جاؤا بباعث من نشوة الجذل والطرب يسعدون برؤية الماء ينزل في ترعة الجزيرة ؟ أم انهم حشروا اليه كما حشر المزغردات والهاتفون في الخرطوم ؟ وكما يحشر الناس في مصر زمراً للقيا كبير أو لتحية أمير .

قلت لأحد كبار الحكام في حكومة السودان : انكم لأشد من حكومة مصر مهارة في حشد الناس وحشرهم وابرع تمثيلاً لما تريدون أن يكون احساسهم وشعورهم

قال وعلى ثغره ابتسامة جمعت الى التهكم الانتصار : لكننا لا نحشرهم الا لمناسبة عظيمة كهذه المناسبة . أما في مصر فما أكثر ما يحشرون .

وقف القطار إذن عند مكان الحفلة فكان هذا المكان الى يساره. وكان خزان ترعة الجزيرة أمامه ، وقد امتدت عليه وعلى الخزان كله قضب السكة الحديد التي ينتظر أن تمتد بعد ذلك الى كسلا . وكان مقرراً أن يقوم القطار بنا فيتخطى الخزان كله وعرضه ثلاثة كيلو مترات. لكنه كان يقوم بعد انتهاء الحفلة . لذلك فضلت أن أسير ولو الى منتصف الخزان راجلاً كي أحيط بشيء من أمره خبراً . وأول ما توسطت خزان ترعة الجزيرة رأيت هذه الجموع التي ترى في

الصورة على شاطىء الترعة الأيمن والأيسر وقد اعتلى عدد كبير منها تلك الاكمة الظاهرة . فما كنت ترى الا ملابس بيضاء ووجوهاً



(صورة المجتمعين مأخوذة من فوق خزان ترعة الجزيرة)

سودانية واقفة تحت الشمس في صمت وسكون كأنما انشقت أرض الأكمة عنها بعد ان كانت حبلى بها فبعثت خلقاً جديداً

وتخطيت ترعة الجزيرة فوق جسر الخزان وأمعنت في سيري على الجسر في امتداده عند الشاطيء الثاني للنيـل الازرق . ويبلغ عرض خزان ترعة الجزيرة مائة متر وثمانيـة أمتار ،يسير الجسر بعدها فوق أرض صلبة مدى أربعمائة وتسعة وثلاثين متراً ثم يمتد بعد ذلك فوق خزان احتياطي عرضه مائة وخمسون متراً ، يجيء بعدها خزان النيل الازرق نفسه وعرضه ستمائة متر وستة أمتار ، يلتصق به خزان احتياطي ثان كالخزان الاول في عرضه،ويسير الجسر بعد ذلك فوق الأرض الصلبـة مائة وسبعة وثلاثين متراً أخرى . وبذلك تصبح هذه الابعاد جميعاً ثلاثة كيلو مترات وخمسة وعشرون متراً

الى يمينك حين تخطيك الجسر من فوق ترعة الجزيرة الى تجاه شاطيء النيل الأزرق الشرقي ترى خزان سنار حجز الماء فيه ذلك الجسر الذي تسير عليه فجعل منـه بحيرة واسعة ما يكاد يحيط بكل جوانبها نظر الرائي . وكان الماء يومئذ أزرق زرقة العقيق وزرقة السماء وكان الجو صحواً صافياً . فلما ابتعدت عن ضجة ألوف من حشروا الى شاطيء الترعة و بلغت من الجسر فوق مجرى النيل الازرق وهبت على نسمات الصباح الرقيق أرسلت بناظري استطلع شيئاً من خبر هذه البحيرة المتسعة الى يميني . فلما عجزت عن الاستطلاع رددت الطرف يسرة فاذا ترعة الجزيرة تنتظر افتتاح الخزان ليرتفع الماء فيها،واذا النيل الازرق فيما وراء الخزان محصور في ستمائة متر بينما تتهادى مياه الخزان

في ثلاثة آلاف وخمسة وعشرين متراً واذا الفرق بين ارتفاع مياه الخزان وانخفاض مياه النيل الازرق يأخذ بالنظر فعلاً ويدعو الى شيء غير قليل من التفكير في هذا العمل الهندسي العظيم وآثاره في السودان وما قد يكون له من رد فعل على المياه اللازمة لمصر

في منتصف الخزان غرفة عليها لوحتان من نحاس نقش على واحدتهما



تاريخ بناء الخزان وعلى الأخرى أسماء حكام السودان اثناء بنائه والمهندسين الذين تعاقبوا هذا البناء. وفوق هذه الغرفة رفع العلم المصري

مقابل الغرفة صفت مقاعد كثيرة يستريح عندها المندوب السامي الذي جاء مع صحب له يشهد الخزان ويسأل « المهندس المقيم » عما يريد أن يسأل عنه من المعلومات الخاصة بهذا البناء الفخيم . وقد لقيني



(مكان الاحتفال)

المندوب والحاكم العام وأصحابهما حين عودتي راجعاً الى مكان الاحتفال . وكان حتماً أن أسرع بالعودة وانا راجل وهم مستقلون السيارات .وعدت فقابلت كثيرين من المصورين والصحفيين مسرعين بالعودة كذلك . فلما بلغت الى حيث كان القطار واقفاً انحدرت يمنة

حيث أقيمت مظلة للمدعوين ترفرف من حولها الأعلام المصرية ، وفي ظلالها قامت صفوف مدرجة من المناضد الخشبية الطويلة ليجلس المدعوون عليها

أمام هذه المظلة وضعت منصة للخطابة ووضع فوق المنضدة بوق لتضخيم الصوت حتى تسمعه هذه الألوف المؤلفة جميعا . كما قامت فوق المنضدة يد في شكل « آمنحوتب » متصله كهربائياً بفتحات الخزان حتى اذا أدارها المندوب السامي انفرج باب الخزان وجرى الماء منه في ترعة الجزيرة .

وفي الساعة العاشرة عاد المندوب السامي والحاكم العام وقرينتيهما وجلسوا الى المنصة وجلس معهم معالي اسماعيل سري باشا وزير الاشغال بالوزارة المصرية في ذلك الحين . وجلس من ورائهم الشيخ محمد الطيب هاشم قاضي النيل الازرق الذي كلف بالقاء ترجمة الخطب من الانكليزية الى العربية .

ثم قام السير جوفري آرشر حاكم السودان العام وألقى خطبة هذه ترجمتها

« يا فخامة اللورد : اني بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن ضباط وموظفي حكومة السودان وهذا الجمع المحتشد وفي الواقع بالنيابة عن سكان هذه البلاد ، نرحب بفخامتكم ترحيباً قلبياً . كنا نعلم حق العلم ما بذلتم فخامتكم أثناء تقلدكم منصب حاكم بومباي من العناية الفائقة

والهمة العظيمة في أمور الري وغيرها من المشروعات الآيلة لاسعاد الشعب وترقيته المادية . ولم يمض بعد سنتان على وضعكم الحجر الأساسي لذلك العمل العظيم على نهر السند الذي أطلق عليه اسم فخامتكم فدعى قناطر لويد . اننا نقدر عظم ملاءمة هذه الفرصة بمناسبة زيارتكم الأولى للسودان كمندوب سام للاحتفال باقامة خزان سنار ، ذلك العمل العظيم الشأن لخير هذه البلاد . هذا واننا يا فخامة اللورد لنتفاءل خيراً بحسن المستقبل لوجودكم بيننا في هذا اليوم . ولا ريب عندي ان السودان في أيامكم وبفضل عنايتكم يبلغ شأواً بعيداً في سبيل التقدم والفلاح . وكذلك أود يا فخامة اللورد أن أعرب لكم اليوم عن أمل عظيم هو أنكم كممثل جلالة الملك في مصر تتمكنون بالاتفاق التام مع مصر من ترويج وتوسيع نطاق الاعمال التي من شأنها حفظ وصيانة مياه النيل لدرجة يستطاع معها بدون أن تتعارض مصالح القطرين زيادة الثمرات ، ليس في مصر فقط ، بل في السودان أيضاً .

وان العمل العظيم الذي نشاهده كاملاً أمامنا في هذه اللحظة ما بلغ هذه النهاية الا بفضل جهاد أناس كثيرين . فقد ظل مشروع ري سهول الجزيرة موضوع بحث المستشارين البريطانيين الذين تعاقبوا في وزارة الأشغال المصرية من عهد السير وليم جارستين . فالابحاث الأولية التي بدأها المستر ديبوي أ كملها السير مردوخ

مكدونلد بمعاونة المرحوم اللورد كتشنر والسير ريجنالدونجت والمرحوم السير لي ستاك . واني لا أشك في أن جميع الحاضرين يأسفون أشد الأسف لعدم تمكن السير مردوخ مكدونلد والسير ريجنالد ونجت ونجت من الحضور معنا في هذا الاحتفال . وقد وصلتني اليوم الرسالة الآتية من السير من السير ريجنالد ونجت (عسى أن يكون افتتاح الخزان ومشروع الجزيرة فاتحة عصر فلاح جديد للسودان وشعبه) ولا بد لي في هذا المقام من القول بأننا نحن الذين تربطنا بالسودان روابط خاصة تقدر اعظم تقدير اهتمام السير ريجنالد ونجت لخير شعوب هذه البلاد الذين حكمهم مدة سبع عشرة سنة بالحكمة واللطف . وقد تكرمت وزارة الاشغال المصرية فوضعت بغاية السخاء تحت تصرف حكومة السودان كل ما كان لديها من الموارد للقيام بتخطيط وانفاذ هذا المشروع العظيم

واني لأنتهز فرصة وجود صاحبي المعالي السير اسماعيل باشا سري وعبد الحميد باشا سليمان هنا اليوم لأعبر لهما بالنيابة عن السودان عما نحن مدينون به لجميع الوزراء الذين تعاقبوا في وزارة الأشغال العمومية وللمهندسين القديرين الذين جاءوا من مصر وكان لمجهوداتهم فضل في المعاونة على اتمام هذا المشروع . وسوف لا أجهد فخامتكم في مثل هذا الظرف السعيد بسرد الصعوبات التي صادفت العمل في بدئه وما زادت الحرب ونتائجها في تلك الصعوبات وكذلك

لا أطمع في أن أضمن هـذا الخطاب القصير ما يجب من الاعتراف بفضل كل أولئك الذين عملوا لاتمام هذا المشروع الذي نحتفل اليوم به . هذا واني أتقدم بالشكر للسير ادجارد نارد والسير ادجار بونهام كارتر والسير جيمس كري لما قاموا به وهم في حكومة السودان من ابتكار هذا المشروع وتنفيذه .

وبعد ان أثنى الحاكم العام على خدمات كل الذين اشتركوا في هذا العمل العظيم ختم خطابه بالكلمات الآتية :

«ولي الشرف أن أدعوفخامتكم الى تكريس هذا العمل الهندسي العظيم لخير السودان وشعوبه »

وقام من بعده لورد لويد فألقى خطبة هذه ترجمتها

يا صاحب المعالي وياحضرات ضباط وموظفي حكومة السودان وعلماء ومشايخ وأعيان وأهالي السودان .حقاً اني لكبير الحظ أن تكون أول زيارة لي لهذه البلاد كمفوض سام كانت لأجل الاحتفال بانجاز هذا العمل العظيم الذي تم لي الشرف بافتتاحه هذا اليوم . وقد قابلت اكثركم لأول مرة في الاستقبال الذي أقيم في الخرطوم احتفالا بيوم الملك وأثر بي ما رأيته من روح المودة الخالصة التي تسود ذلك الاجتماع الممثل لمصالح متعـددة وهامة . واني أرحب بهذا الاحتفال الذي تقيمه الآن حيث قد ختمت تلك المودة بعمل عظيم ، الغرض منه جلب المنافع الدائمة لكم يا أهالي السودان وللبلدان الاخرى التي

تستورد المواد لصناعتها من محصولات أراضيكم . وان السواد الاعظم منكم اليوم ليستطيع اكثر مني تقدير تلك الحكمة والبصيرة والجراءة التي جعلت خزان سنار في حيز الاستطاعة . ان السودان اليوم يجني ثمار عبقرية اللورد كرومر المقرونة بطول الاناءة فقد كانت سياسته كما تذكرون ترمي الى ترقية البلاد ترقية ثابتة دون أن تتجاوز حدود طاقتها . وقد اقتفى السير ريجنالد ونجت والمرحوم السير لي ستاك هذه الخطة وواصلا العمل باخلاص ونجاح باهرين الاول لمدة سبع عشر سنة والثاني لمدة السبع عشرة سنة الأخيرة من حياته . ويجب أن لا ننسى اليوم ما نحن مدينون به لهؤلاء الثلاثة . وعلي أيضاً أن أؤيد السير جيوفري أرشر فيما فاه به من ثنائه على البراعة والمثابرة والهمة التي أبداها أولئك المهندسون الشهيرون الذين منذ ان وضع السير وليم جارستن المشروع الأصلي سعوا الواحد تلو الآخر لاجل تحقيقه . وللسودان في شخص السير جيوفري أرشر حاكم عام أثق كل الثقة انه سيحافظ علي تقاليد الماضي .وقد جاء للسودان في وقت مناسب وفي دور حيوي في تاريخ البلاد . فان خزان سنار كما تعلمون ليس سوى جزء من مشروع عام لأجل ترقية وتحسين موارد النيل . وقد أثبتت المباحث الدقيقة التي أجراها الخبراء في الماضى ان مياه النيل اذا أحسن صيانتها وتوزيعها بالعدل والانصاف يجب أن تكفي وتزيد عن احتياجات مصر والسودان الحالية والمنتظرة في المستقبل

ومن دواعي سرورنا الخاص أن يكون حضرة صاحب المعالي السير اسماعيل باشا سري ، احد ابناء مصر والمعروف بالنبوغ والشهرة، حاضراً معنا اليوم ، وذلك نظراً لاشتراكه شخصياً في اعداد هذا المشروع ، وكذلك نتفاءل خيراً بوجود صاحب المعالي عبد الحميد باشا سليمان ، فاني واثق أن مقدرته وسعة نظره يبعثان على ازالة ما بقي عالقاً من سوء الادراك للمسائل العملية الخاصة بالمشروع

أما والوقائع الجوهرية هي كما تعلمون فاذا ساد المفاوضات روح الحكمة السياسية فلا يجب أن تقوم صعوبة في سبيل الوصول الى تسوية تضمن ضماناً وافيا حاجة مصر، وفي نفس الوقت تمكن السودان من السير في طريق العمران بقدم ثابتة حسبما تسمح له موارده . وللسودان في احوال كهذه أن ينظر الى المستقبل بعين الثقة والطمأنينة . وعسى أن يبقى العمل الذي افتتحه اليوم شاهداً دائماً على الفوائد الناجمة عن قيام الحكومة بعمل كهذا بغاية الحكمة والتبصر. ويجب أن يكون من نتائج هذا المشروع ليس فقط ازدياد رفاهية المزارعين الوطنيين بل يجب في نفس الوقت أن يعود بفائدة عاجلة مقابلة لرأس المال الكبير الذى انفق على انشائه . وختاماً أقول أنه بالرغم من أن زراعة القطن هي الغرض الاول من مشروع الجزيرة فهناك شرط على جانب عظيم من الحكمة يضمن وفرة المواد الغذائية محليا

وعدم تعرضها للنقص . وأود في الختام أن اشير الى موضوع آخر عام
وعلى جانب من الاهمية . وهو أن الروابط التي تربط الحكومة وأهالي
السودان لهي روابط صداقة شخصية .ومن المبادىء الاولية في مشروع
الجزيرة كما في غيره من المشاريع التي يمكن أن تقام في هـذه البلاد
أن تلك الرابطة المرغوبة يجب أن يحتفظ بها بغاية الاعتناء . والحكومة
تعتقد أن من الامور الجوهرية ترقية الشعب على موجب طبيعته. وأن
التحسين المتعاظم في الأمور المادية لا يجب أن ينتج ضياعاً أو انحطاطا
في الافكار والتقاليد التي هي اساس اخلاق الشعوب . ولي ملء الثقة
أن يقوم قادة الافكار في السودان سواء كانوا رؤساء دينيين أو زعماء
قبائل أو ذوي معارف ممتازة بالواجب عليهم للمحافظة على الحالة
السعيدة الحاضرة . ويسرني أن اخاطبكم بلهجة المتفائل بحسن المستقبل.
أن الرجم بالغيب محفوف دائما بالمخاطر . انما يمكنكم أن تتأكدوا من
شيء واحد هو اني سأبذل اقصى الجهد وروح التساهل الودي لازالة
كل العوائق التي قد تقف في طريق المشروعات العظيمة لارتقاء
وعمران السودان في المستقبل . وأن ما اختبرته في هذه المدة الوجيزة
اثناء زيارتي الأولى للسودان يبعث في نفسي الاعتقاد بأن في استطاعتي
الاعتماد على ولاء ومساعدة كل شخص في السودان سعيا وراء تلك
الغاية العظمى التي لابد أن تثير اهتمام وعطف العالم المتمدن بأسره .

ثم وقف حضرة صاحب المعالي اسماعيل سري باشا والقى خطبة هذا نصها :

يا فخامة المندوب السامي ويا صاحب المعالي الحاكم العام وياسيداتي وياسادتي :

كان من بواعث سروري العظيم أن ادعى لحضور هذا الاحتفال الزاهر بافتتاح خزان سنار المعد لاحياء موات جزء عظيم من الاراضي السودانية بالري الصناعي الذي ما دخل أرضاً الا وزاد في انتاجها كما هو معلوم . ومن بواعث الفخر لمصر أن تكون هي واضعة مشروع ري الجزيرة بواسطة كبار مهندسيها وفي مقدمتهم المرحومين السير ويليام جارستن والسير آرثر وب ومن تبعهما كالمستر ديبوي والمستر توتنهام والسير مردوخ مكدونلد الذي تم على يديه تحضير المشروع نهائياً واعداده للتنفيذ . ولا حاجة لأن اذكر أن كل هؤلاء من اعاظم المهندسين التابعين لوزارة الاشغال العمومية . هذا واني أبدي هنا مزيد الشكر للسير جوفري ارشر على مافاه به في هذا الخصوص . وقد أشرف مهندسون تابعون لوزارة الاشغال العمومية المصرية على العمل في مدة تنفيذه

ويمكنني أن أزيد مع الفخر اشتراك شخصي الضعيف في تحضير المشروع . هذا واني أذكر هنا مع مزيد السرور لاهالي السودان الحاضرين معنا عطف الامة المصرية عليهم بهذه المناسبة السعيدة

وأخبرهم بأنها يسرها أن ترى السودان في بحبوحة من الرغد والسعة وأن يزداد اهله رفاهية وتقدما في العرفان . ولا ريب عندي أن ما يجري من الماء في النيل السعيد يكفي بل يزيد عن احتياجات مصر والسودان لريهما معاً اذا أحكم تدبيره بالاعمال الصناعية التي أولها هذا الخزان واني اسأل المولى القدير المتعال أن يوفقنا جميعاً للوصول لاداء واجباتنا

☆ ☆ ☆

ولقد كانت خطبة سري باشا غير المنتظرة باعثة لسرور المصريين الذين استاءوا قبل ذلك لعدم تمثيل مصر في هذه الحفلة التاريخية . وتبدو في الخطب كلها روح تفاهم ممكن تحقيقه اذا اخلصت جميع الضمائر لهذه الغاية وصدق العمل القول . ولعل اشارة سري باشا الى مجهود مصر العظيم في انشاء خزان سنار يجعل هذا الاخلاص صريحاً .

وبعد ذلك ادار المندوب اليد التى صيغت على مثال « امينمحعت الثالث » فجرى الماء للقناة من الخزان . وانما صيغت اليد على مثال « امينمحعت الثالث » الذي حكم مصر منذ الفين وثلاثمائة سنة تقريباً لما عرف عن هذا الملك القديم في التاريخ من انه أول من حاول بصفة جدية ضبط مياه النيل لحسن ري الاراضي كما تذهب الاساطير الى انه هو الذي أنشأ بحيرة موريس

وفيما الماء يندفع من احدى بوابات القناطر في ترعة الجزيرة وقف مطران السودان المحترم جوين ووقف الى جانبه مفتي السودان الشيخ اسماعيل الازهري فوق العين التي يتدفق منها الماء وتليا عبارات التبريك لهذا الماء الخصب المنساب الى أراض لم تكن تعرف الخصب ولا الزراعة من قبل . ووقف الحضور جميعاً اثناء تلاوة صلاة التدشين التي فاه بها المحترم جوين وخطبة المباركة التي القاها المفتي الازهري وصلاة المطران جوين الثانيـة ومنهم من يبتهل الى الله مخلصاً أن يبارك هذا العمل الفني المجيد ومنهم من ينظر بعين الحذر الى ما سيكون من نتائجه .

ولست أنكر ما كان لهذه الحفلة الدينية التي لم أحضر من قبل مثلها من أثر في نفسي . على اني كنت أحسبها تكون أعمق في النفوس أثراً لو أن الرجلين اللذين قاما بها لم يكونا بعيدين عن الحضور حتى لم يسمع أحد صوتهما الذي غرق في ضوضاء الماء المتحدره ،والذي ربما أدى بغرقه في هذه الضوضاء الى زيادة هذا الماء بركة

وهذه صلاة التدشين الاولى التى تلاها المطران جوين حسب ترجمتها الرسمية

اللهم القادر على كل شيء ، الأزلي الأبدي ، مبدع العالم كله وخالقنا جميعاً ،من جعلت نظاماً يسير عليه العالم أجمع،و بلاد السودان أيضاً .

نشكرك اللهم من أجل عبيدك ، تشارلس جورج غوردون ولي اولفر فتزموريس ستاك ومن أجل جميع الذين عملوا في خدمة هذه البلاد وضحوا بحياتهم في سبيل تنفيذ خططك

انا نشكرك للحكمة والنباهة اللذين وهبتهما الى اولئك الذين ابتكروا فكرة تسخير مياه هذا النهر لخدمة الانسان وانا نذكر امامك بنوع خاص ، عبيدك وليم جارستن وهربرت هوراشو كنشنر ، اللهم انا نشكرك أيضاً من أجل جميع ، الذين اشتغلوا لانفاذ هذه الاعمال ، من أجل الذي وضع رسومه ؛ ومن أجل مهندسه ، ومن أجل المقاولين ، والصناع ، اصحاب الحرف من جميع الملل والنحل ، ومن أجل العمال الذين حفروا الأرض

ومن أجل البنائين الذين بنوا الاحجار و بالاجمال من أجل جميع الذين وهبوا قواهم البدنية وحذقهم وعقولهم في سبيل هذا العمل وساعدوا بانجازه ان كان ذلك بمعرفة منهم أو بغير معرفة أو كان ذلك باستعمال ذكاءهم المفرط أو كان ذلك بقليل من الذكاء

انا نشكرك اللهم ونحمد العناية الصمدانية التي وهبتها بنوع خاص في أشد أوقات الخطر اثناء أدوار البناء ، ونحمدك فوق كل شيء من أجل الامطار التي ترسلها على الجبال فتسبب فيضان النيل وتهبنا المياه التي نروى الارض بها

لك اللهم العظمة والقوة والمجد والظفر والجلالة

كما في السماء ، وما في الارض هو لك ، الملك ملكك يا إلهنا
بيدك القوة والجبروت ، و بيدك تعظيم وتشديد الجميع ، وتهب
القوة لهم جميعاً ، نتضرع اليك بخضوع وخشوع أن تقبل شكرنا هذا
باسم و بواسطة ربنا يسوع الذى علمنا أن نصلي هكذا

أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك،ليات ملكوتك ، لتكن
مشيئتك كما في السماء كذلك على الارض ، اعطنا خبزنا كفاة يومنا
واغفر لنا ذنوبنا كما نحن ايضاً نغفر للمذنبين الينا ولا تدخلنا في تجربة
وانقذنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد الى الأبد آمين

وهذه هي الصلاة الثانية التي القاها المطران جوين كذلك

أيها الاله القادر على كل شيء ، الأزلي الذي لا يتغير ، الحكيم
وحده ، وأب البشر أجمع اننا نضرع اليك أن تبارك هذا الخزان ،
ومشروع الري ، ليس فقط لأن ثروة الناس ونجاحهم سيزيدان
بواسطتهما ، بل لأنه اذا استعمل الناس هذه الهبات التي هي منك
كما يجب يزون حكمة وعلماً ، وديناً ، وصلاحاً حقيقياً

انظر اللهم الى هذه البلاد ، بالرحمة واللطف ، وامنح بأن تسود
الحرية والعدل والصلاح حيث كانت الشدة والاستبداد والظلم تطأ
بأقدامها على شعبك ، قد قلت في كتابك المقدس أن سيأتي اليوم
الذي به يطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل

نسألك اللهم أن تعلم طرق السلام الى اولئك الذين كانوا

مضطرين ان يعيشوا من الحرب فى الزمان الغابر وامنحهم الاتحاد والوفاق ، امنح بأن يتمموا اعمال خلاصك العجيب بواسطة تأثير عنايتك الدائمة التي تعمل بيننا بدون أن نشعر

دع العالم أجمع يشعر ويرى أن الامور التي نبذوها جانباً قد عادت فارتفعت ، وان تلك الامور التى قدم عهدها تتجدد الآن ، وبالاجمال ان جميع الامور تعود الآن الى الكمال بواسطتك يا منبع جميع الامور ، لك البركة والشكر آمين

البركة

ليباركم الله ويحفظكم ، ليضيء بوجهه عليكم ، ويمنحكم نعمتهُ لتنيركم أنوار محياه ، وليهبكم السلام من الآن والى الابد آمين

أما خطبة فضيلة مفتي الديار السودانية في حفلة فتح خزان سنار فهذا نصها

أيها السادة

انا نقف هذا الموقف لنرفع اكف الضراعة بالحمد والشكر لله الذي جلت قدرته وتعالت عظمته وارتفع شأنه وعز سلطانه على ما أولانا من النعم الجليلة التي منها اتمام هذا البناء الشامخ ومشروع رى الجزيرة العظيم فان الشكر على النعم واجب وبه تزداد ، قال الله في كتابه العزيز (لئن شكرتم لأزيدنكم)

الحمد لله نحمده ونستعين به ونشكره فانه منشىء الكائنات باريء النسمات مقدر الاقوات ونصلي ونسلم على رسوله الذي أتى بالهدى والبينات لاصلاح حال الناس في الحياة الدنيا وفي الآخرة . فقد ورد (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً) وعلى اخوانه من النبيين والمرسلين ومن نهج نهجهم القويم واهتدى بهديهم الى الصراط المستقيم

أما بعد فان الله تعالى خلق هذا الانسان محتاجاً الى الطعام والشراب واللباس فهيأ له من الامور الكونية ما يكفل له بقاءه في هذه الحياة على أصلح الوجوه متى استعمل فيها فكره ومواهبه التي فطره عليها . خلق السحاب والامطار ممدة للعيون والانهار التي بها حفظ حياته فقال في كتابه العزيز (وجعلنا من الماء كل شيء حي) وخلق له الارض مستعدة لانبات جميع النباتات التي يحتاج اليها لنفسه ولأنعامه (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء) (وترى الارض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج) (الذي جعل لكم الارض مهاداً وسلك لكم فيها سبلاً وانزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجاً من نبات شتى كلوا وارعو أنعامكم ان في ذلك لآيات لأولي النهى) (الله الذي خلق السموات والارض وأنزل

من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الانهار وآتاكم من كل ما سألتموه وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها) (علّم الانسان ما لم يعلم) وأتاه لحكمة والعلم النافع (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) فهداه الى أنجع الطرق للاستفادة من هذه الأنهار

وستصير هذه البلاد بواسطة هذا العمل العظيم من اكبر البلاد انتاجاً وثروة وسيصير الشعب السوداني في رغد من العيش ونعمة ورفاهة

ولله ذي الطول والاكرام الذي بيده الخير وهو على كل شيء قدير الثناء والشكر الخالص على هذه النعم التي لا تحصى

ونسأله جل شأنه أن يبارك في هذا العمل ويديم النفع به لخير البلاد والعباد آمين

اللهم اجعل هذا القطر آمناً مطمئناً في سخاء ورخاء وعدل واشمله بعنايتك ورعايتك وامطر عليه شآبيب خيرك . بفضلك وكرمك واحسانك انك سميع قريب مجيب الدعاء والسلام

***

بعد هذا التبريك انتهت حفلة افتتاح خزان سنار وآن لكل هذه الجموع أن تتفرق .

العودة الى الخرطوم

عند محالج قطن السودان فى بركات

انتهت حفلة افتتاح خزان سنار التي دعينا لشهودها وآن لنا أن نعود بالقطار نتناول فيه طعام الغداء ثم ننزل منه عند بركات نشهد أحد وابورات الحليج بها ونستمع الى الخطاب الثاني الذي يلقيه فخامة لورد لويد مندوب انكلترا السامي

واذ كانت هذه الحفلات كغيرها من الحفلات الرسمية أقرب الى أن تكون مظاهرات منها إلى أى شيء آخر وكان خطاب لورد لويد يجب أن يتناول الحديث عن زراعة أراضي الجزيرة والقطن النامي بها والناتج منها ولم يكن لورد لويد قد حضر الى السودان من قبل أبداً ، فقد وجب أن يستقل فخامته وقرينته سيارات يصحبهم فيها رجال حكومة السودان ويطوفون وإياهم بعض مزارع القطن لكى يكون حديث المندب السامي عن علم أو عما يشبه العلم في نظر المستمعين . لذلك استقل هو ومن كان في صحبته سياراتهم على أن يمروا بالمزارع واستقللنا نحن القطار . والى الملتقى ببركات

ها نحن الآن تشهد أعيننا ضيوف الحاكم العام بحفلة افتتاح

الخزان مجتمعين في عربات القطار . لقـد جاؤوا من مصر وانكلترا زمراً ولم ير بعضهم بعضاً في اجتماع واحد . ولقد دعي كثير من أعيان السودان لشهود الحفـلة ممن رأينا في يوم عيد الملك وممن لم نر في ذلك اليوم. وقد قمنا من الخرطوم في المساء بعد ما تناولنا طعام العشاء بفنادقها، وشغلنا عند سير القطار بالهاتفين والمزغردات وذهب اكثرنا بعد ذلك الى مخدعه، ثم تناول الاكثرون طعام الافطار في مخادعهم كذلك . لهذا لم يتسن لأحد أن يرى جميع زملائه في الضيافة الا حين حفلة مكوار . لكن الذين اجتمعوا لشهود الحفلة من موظفين وغير موظفين جعل التفرقة بين الضيوف وغيرهم عسيراً . فلما تحرك القطار وباعد بيننا وبين الالوف التي حشـدت لتهتف للمحتفلين لم يبق الا نحن الضيوف وشعر كل واحد منا بما بينه وبين صاحبه من صلة الضيافة، فكنت ترى كثيراً من الابتسامات تتبادل ومن التحيات تتهادى

ثم كانت فرصة أخرى لزيادة التعارف تلك فرصة تناول طعام الغداء في عربة الاكل . فقد هرع الناس الى هنالك بعد سير القطار القطار بدقائق، واستبقوا يتخير كل منهم مكاناً صالحاً. ولم تعن حكومة السودان بتحديد الامكنة في تلك العربة كما عنيت بتحديد مخادع النوم . فكان السـابق صاحب الاختيار . وكان جماعة الاوربيين انكليز أو غير إنكليز أسبق منا نحن الشرقيين الذين يرون في الاسراع

الى الطعام شيئاً من التنافي مع الكرامة لما قد يكون فيه من دلالة على الشره . لذلك الفينا نصف العربة الاول امتلأ و بقى نصفها الثاني خالياً أو يكاد . فتخيرنا في هذا القسم الثاني أما كننا وجعلنا ننتظر من يجلس وإيانا فيه بينا كان الخدم يقدمون الطعام لأهل القسم الأول. أين جيراننا وزملاؤنا في الطعام . ؟ أو لئك أعيان السودان . وهم أشد تباطؤاً الى الطعام وتظاهراً بعدم الاكتراث به لنفس السبب الذي جعلنا نتأخر عن زملائنا الاوربيين . لكن .. هاهم بدأوا يفدون واحد بعد واحد . وهذا جانب الغرفة يكاد يمتلأ ... لكن ... أين السير سيد علي الميرغني ؟ .. ابعثوا في طلبه .. احفظوا له مكانه ... وذهب كبير من موظفي حكومة السودان يبحث عنه ثم جاء وإياه على مهل فأجلسه على المائدة المقابلة لمائدتنا

وأشار جليسي الى أحد أعيان السودان وسألني ان كنت أعرفه، ثم أخبرني انه الشيخ علي التوم الذي أنعم عليه بلقب « سير » يوم عيد الملك . وهو رجل طويل القامة نحيف الجسم تبدو عليه مظاهر القوة والشدة . قال جليسي

— « قد يدهشك أن تنعم حكومة صاحب الجلالة البريطانية على مثل هذا الساذج باللقب العظيم الذي أنعمت عليه به والذي لم تنعم به في مصر الا على رؤساء الوزارات . لكنك تزول دهشتك اذا علمت ان في إمرة هـذا الساذج الفى رجل يتحركون باشارته

ويدينون لطاعته. والانعام عليه يفيد ولاءه للحكومة وللتاج البريطاني ويقيده بهذا الولاء فعلاً . واذن فهذا اللقب الذى لا يكلف حكومة الامبراطورية شيئاً قد كفل لها ولاء الفى رجل كلهم عتاة شداد لا يعصون هذا الرجل ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون

وكأنما شعر جماعة من أعيان السودان الذين جلسوا الى جانبنا انا نتحدث عنهم فنظروا الى ناحيتنا نظرات حذر وتأهب . ثم خاطبنا أحدهم بلهجة عسر على أن أفهمها . فرد عليه جليسي بعبارة لطيفة . وآليت أن لا أتحدث عن هؤلاء الناس أثناء الطعام بشيء حتى لا أثير ما يدفعهم الى التأهب من جديد . بل لقد حاولت أن لا أنظر اليهم كيف يتناولون الطعام مخافة أن يحسبوا أنها نظرة نقد . والظاهر أنهم في شدة ولائهم لحكومة بلادهم وللحكومة الانكليزية التي تنعم عليهم وتبر بهم يخيل اليهم أني أريد كمصري أن أثير عندهم ثائرة أو أثير شبهات الحكومة حولهم . أو لعلهم وقد رأوا الى جانبهم وكيل ادارة المخابرات — وهى الادراة المختصة بالامن والمهيمنة عن أسراره — خشوا أن يؤخذ ما قد يكون من مرونة في القول أو لين فى حديث متبادل على أنه ميل منهم لحكومة مصر . والميل لحكومة مصر كان يومئذ لا يزال معتبراً ميلاً للثورة والثائرين رغم ان كانت الحكومة القائمة يومئذ في مصر حكومة زيور باشا المستعدة للاعتراف بالسودان بل للاعتراف بمصر مستعمرة انكليزية

برغم هـذا الحذر والتأهب الذي دفعت به الى نفوس أعيان السودان أحداث السياسة كنت تلمح في وجوههم من علائم الشهامة والكرم والمروءة ما يذكرنا بأجدادنا المصريين الذين لم يكونوا قد تأثروا بعد بالمدنية الغربيـة ولم تكن النظم الحاضرة قد دفعت الى نفوسهم ما ترى اليوم عند كثيرين من حرص على المادة وانغماس في أسباب تحصيلها . بل كنت ترى اكثر من هـذا . كنت تحس هؤلاء الاعيان يشعرون بشيء من الضيق لهذة التكاليف الرسمية . هم يغتبطون بمـا تنطق بهِ من صلة بينهم وبين الحاكم . لكنها في نفس الوقت لا تتفق وطباعهم الصريحـة التي لا تعرف القيود ، ولعل الكثيرين منهم في ذلك مثلهم مثل شيخ عرب من أكارم المصريين توفي من أكثر من عشرين سنة كان يذهب الى التشريفة لمقابلة الخديو مع سائر الاعيان في كل عيد من الاعياد . وكان يتضايق غاية الضيق من الجبة والقفطان . فكان يذهب في ملابسه العادية والتي تنم عن بساطته وكرمهِ وحبهِ الانسانية ،والتي تتكون من زعبوط وحرام ، الى حانوت على مقربة من عابدين حيث يخلعها ويرتدي الملابس الرسمية مدى الساعة التي يدخل فيها قصر عابدين ويمثل فيها فى حضرة الامير . فاذا تمت هذه المهمة التي كان يغتبط بها أسرع الى حانوتهِ فألقى ملابسهُ الرسمية ولبس زعبوطهُ وحرامهُ وعاد كما كان

شيخ العرب الكريم السخي اليد الذي يريد أن لا يشعر فقير الى جانبه بالفقر ما دام يرى هذا المحسن اليه في لباس بسيط كلباسه .

وانطلق القطار الى بركات فبلغها حوالي الرابعة بعد الظهر . ثم سار بعد ذلك على مهل الى وابور الحليج . ما هذه الجموع الحاشدة التي تزيد على جموع مكوار !! احسب ان حكومة السودان قد جندت من في السودان جميعاً لهذا اليوم . فهؤلاء لا شك يزيدون على خمسة عشر الف رجل . وهؤلاء لبسوا البياض . فلعله لهم أو لعل الحكومة تتركه منحة منها إن كانت هي التي خلعته عليهم

نزلنا من القطار في ساحة فسيحة يتسع جانبها البعيد عنا لهذه الألوف الحاشدة وفصل بيننا وبينهـا فضاء متسع وضعت في ركن من أركانه اكياس القطن التى أتى بها للمحلج،وقام وابور الحليج وبه ثمانون دولاباً فيوسط الساحة، وهذا الوابور واحد من أربعة يشتغل في كل منها مأتين وخمسون عاملا. وسرنا تغمرنا شمس يناير الدافئة البديعة المنعشة حتى دخلنا بناء الوابور المقام من الصاج . اليس عجباً أن تمتد يد الحضارة لتقيم في هذه النواحى البادية هـذه الالآت الضخمة العظيمة اتى بها من انكلترا على متون البحار قطعاً وهذه هي تدور الآن مكينات فخمة قوية تحلج مئات القناطير وتقدم لمئات السودانيين عملا كانوا في غنى عنه بقناعتهم بعيش البداوة الهنى . لكن انكلترا يجب أن تتغذى بالقطن لينال عمالها واشرافها اكبر

خط يريدون نواله من المتاع بالحياة فيجب لذلك أن يخرج أهل السودان وغير أهل السودان على ما ألفوا منذ مئات السنين وأن ينتجوا القطن وغير القطن كارهين لهذا المجهود أول قيامهم به . فاذا ألفوه ، وألفوا مايدره عليهم من ربح وما يوفره لهم في الحياة من نعيم إستزادوا منه ما أطاقوا الاستزادة . ثم تراهم بعد ذلك ولهم في الحياة مثل ما لعمال الانكليز وأشرافهم من مطامع . يومئذ لا يكون مفر من احتكاك فتفاهم . وذلك شأن النظام الفردي في الاقتصاد ، ذلك النظام البديع القائم على أن تعني كل ذاتية ، سواء كانت فرداً أو هيئة أو أمة ، بمصلحتها، وان تنافس غيرها في السعي لتحصيل هذه المصلحة في خير ظروف ممكنة . فهو ينتهي دائماً الى السير بالانسانية في سبيل التقدم . وهو من غير شك الحركة الدافعة التي تصل،عن غير شعور من القائمين بها الى هذه الغاية الانسانية السامية غاية تفاهم الجميع لخير الجميع ولخير كل فرد أو هيئة أو أمة يتكون منها هذا الجميع

درنا في أرجاء وابور الحليج ثم خرجنا من باب غير الذي دخلنا منهُ فاذا أمام هذا الباب الثاني مصطبة كبيرة أقيمت عليها مظلة تحتها مائدة عليها معظم للصوت ومن حولها مقاعد أعدت ليجلس عليها المندوب السامي البريطاني وصحبهُ، وليقوم بالقاء خطابهِ،ينوه فيهِ بأعمال الحضارة التي قامت بها بريطانيا في السودان،على هذه الالوف من

السودانيين الذين حشدوا له، والذين لا يعرف أحدهم من الانكليزية حرفاً ولا يستطيع واحد في كل مائتين منهم أن يدرك - ان هو استطاع ان يسمع - ما في ترجمة هذا الخطاب الى العربية

وأعدت للصحافة مناضد وضعت عليها أقلام الرصاص و (بلوكنوت) من ورق صقيل، كما مهدت للصحفيين من قبل كل وسائل العمل للاسراع في إرسال رسائلهم البرقية الى أنحاء العالم المختلفة يذيعون فيها أخبار هذا الاحتفال البريطاني، في مناطق خط الاستواء، بعمل من أعمال الحضارة العظيمة قامت بهِ بريطانيا خدمة للحضارة في العالم، وان كانت خدمة تفيد أهل البلاد وتفيد بريطانيا نفسها

وبعد الساعة الرابعة بقليل أقبل لورد لويد ومن معهُ عائدين من زيارة مزارع القطن بالجزيرة فأحاطوا بالمنضدة تحت المظلة . وألقى لورد لويد خطاباً هذه ترجمتهِ :

كان لي هذا الصباح كما تعلمون عظيم الاغتباط بافتتاح خزان سنار وتسجيل خطوة جديدة خطيرة لترقي السودان الاقتصادي . ومنذ الاحتفال مررنا بقسم من الاراضي التي أخصبها الخزان ولاحظناها . ومن دواعي سروري أن تتاح لي الآن فرصة مقابلة من تقع عليهم التبعة الخطيرة ، تبعة استغلال ما أنشىء الخزان له

لا يسع الزائر الذي يرى ما تم اليوم إلا أن يقدر ما أنفق في هذا المشروع من جهد وروية واقدام. فمنذ سنة ١٨٩٩ عرف السر وليم

جارستن الذي عمل كثيراً لأهالي مصر والسودان مكنونات سهل الجزيرة . ومن ذلك الحين ظلت المسألة موضع البحث الدقيق . واستطيع شخصياً أن أقدر هذا العمل قدره بعد ما كان من حظي في اثناء عملي في الهند أن أفتتح وأشهد أكثر من واحد من مشروعات الري الكبرى التي قصد بها هناك كما قصد بها هنا الى تحسين حظ الزارعين وزيادة ثروة البلاد

تعرفون تاريخ المشروع ووقوفه في اثناء الحرب والصعوبات الهندسية العظيمة التي وجب التغلب عليها قبل اتمامه كما نراه اليوم . والمسألة الآن هى كيفية الاستفادة الصحيحة من الموارد التي أسبغها على أهالي السودان عظيم ما أنفق من جهد ومال . والجواب لا ريب عندي أن النجاح رهن باستمرار ونمو التعاون الذي قام المشروع على أساسه . فقد اكتتب الجمهور البريطاني بما لا يقل عن احد عشر مليوناً وربع مليون من الجنيهات ، وبررت الشركة من جانبها هذه الثقة بها بمباشرة الاعمال الزراعية وحفر الترع الصغرى ببعد نظر ومقدرة يقصرونهما كل ثناء ، والقت درساً مدهشاً بتدريب عدد عظيم من الزراع عند الطلمبات . وأهم الاشياء ان علاقاتها بالزراع عموماً كانت علاقات عطف ومودة . ولا سبيل للنجاح الصحيح ما لم يقم على قاعدة هذا العطف

وبعد أن أثنى على المستر اكستين قال :

لقد تغيرت حالة السودان كلها في السبع والعشرين سنة الاخيرة . فكانت البلاد قبل اعادة فتحها تزداد كل سنة انحطاطاً بدلاً من أن تتقدم، وكانت حروب القبائل وما تجر من الوباء والقحط وسائر الشرور التي تلازم عدم الطمأنينة على النفس والمال تهلك الحرث والنسل ، لذلك انقلبت مساحات واسعة كانت قبل عامرة الى أراض غامرة واشتد الظلم والقسوة . ومن بينكم لا ريب من يذكر تلك الايام ومن عاش ليرى الشوك والسعدان ينقلبان مروجاً خصبة ، والضغط والقسوة يحل محلهما العدل والسلام . وتشهد الاحصاءآت الرسمية بزيادة عدد السكان منذئذ الى ثلاثة أضعافه ، وأصبحت الثروة لا تقض مضجع صاحبها مخافة أن ينتزعها منه مستبد. والغني والفقير يستطيعان السير آمنين حيث يشاءآن، وللقانون والنظام الحكم في كل مكان . وفي السنة الاولى لاتمام الخزان زرع ثمانون الف فدان قطناً ، ومساحة عظيمة ذرة ينتظر أن تغل ثمانين الف أردب هذا العام ، وذلك كفيل بعدم جناية غرض مشروع الجزيرة الاول ، بزرع القطن لبيعه، على حاجات الشعب لمؤونته كفالة تطمئن من يذكرون قحط البلاد سنة ١٨٨٨ وما حاق بها من متاعب خطيرة سنة ١٩١٣ . ونقطة هامة تستحق التنويه هي كفالة حقوق الاهالي بقانون سنة ١٩٢١ . فهناك شركة بين الزراع والحكومة ،

والشركة اشتراك وثيق في المصالح يجعل كل طرف يسعى لانتاج أحسن محصول وأصحه .

وختم جنـابه الخطاب بتهنئة موظفي المديريات وشكر الحاكم العام والتنويه بفائدة المشروع لاهالي السودان وتجارة جميع الامم

وكان يلوح على لورد لويد أثناء القائة هذا الخطاب أنه متعب مجدود. فلم يكن في مثل ما كان ساعة القاء خطاب الصباح من نشاط وهمة . وله العذر بعد هذا المجهود المضنى الذى قام به هو وقرينته والذى لا يعتبر شيئاً الى جانبهِ ما قاما به من مصافحة أكثر من ثمانمائة مدعو في حفلة « يوم الملك » عملاً لمصلحة الامبراطورية العظيمة .

وانصرفنا عائدين الى القطار ، وخفف عن هذه الالوف التى حشدت نطاق النظام الحديدي الذي أوقفها في أماكنها صفوفاً كما توقف الجند . فاستفاد من ذلك بعض أفرادها . كانوا يحدثوننا أيام الطفولة ان سليمان عليه السلام حبس الجن وألزمهم بناء تدمر بالصفاح والعمد ، وانه ظل يرقبهم بنفسه فكان مجرد جلوسه عندهم كافياً لدأبهم على العمل والجد فيه . ومات سليمان في جلسته وأسبل الموت عينيه ومع ذلك ظل الجن في دأبهم خيفة أن يكون اطباق النبي أجفانه لسنة أخذته فأذا شذوا عن أمره انزل بهم آلام العقاب . فلما مال جثمان سليمان وهوى الى الارض وأيقن الجن موته انطلقوا فرحين

أشد فرح بعود الحرية اليهم وجعلوا يعيشون حيث شاؤا وبما شاؤا .
كان ذلك شأن هؤلاء الذين خفف نطاق النظام عنهم . انطلقوا يعدون ملء سيقانهم ليملأوا هذا الفضاء الذي كان يفصل بيننا وبينهم حتى صاروا عقبة في سبيل وصولنا الى القطار . فلما وصلنا اليه بعد جهد الفيناهم أحاطوا به من كل جانب حتى تعـذر الصعود اليه ، واضطررنا للالتجاء إلى القائمين بأمر النظام في هذا المكان الذي تولاه هرج أي هرج . وعجز حماة النظام عن معاونتنا فشققنا لأنفسنا الطريق بين هذه الجموع المائجة التي ظل لديها من الاحترام لنا ماتوجبه عليها الشرقية المتسامحة من اكرام الضيف وحماية الغريب

فيم هذا الهرج والمرج ؟! ما هذا العجيج الذي تثيره هذه الخلائق المندفعة صوب القطار في حماسة وجيشان ؟! . . . صه ! ان لها من وراء اندفاعها لغرضاً سامياً عظيما . انها تلتمس بركات صاحب البركات السيد على الميرغنى

نعم ! فقد أقبل السيد الى عربته بالقطار فطار فى اثره مئات من السودانيين لا يقترب اليه منهم أحد ولكنهم يتبركون بمواطىء قدمه ويطلبون اليه فى خشوع وابتهال كلمـة الرضا والغفران . فلما صعدنا العربة رأيتهم احاطوا بهـا وجعلوا يلمسون بأيديهم عليها يتملون من بركاتها مايتملى به اولئك الذين يزورون الاولياء الصالحين فى مقابرهم . ولعلك إن تحدثت الى احدهم فيما يفعل قال لك إن عربة

القطار التي يحلها ولي صالح كالسيد المرغنى اكثر حياة وبركة من ضريح به رفات ولى كان من الصالحين . ولعله يقول لك ذلك في إيمان ناسيا أن اولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأنهم بعد موتهم احياء عند ربهم يرزقون .

أشرت فى فصل « عيد الملك » الى إيمان اعيان السودان بالسيد على . هـذا الايمان المرتسم على وجوههم البادي في نظراتهم المتجلي في كل حركاتهم حين اقبالهم مسرعين في خشوع واجلال يقبلون يده وينظرون من طرف كسير نظرة كلها الأيمان والاجـلال ورجاء الرضى وحسن الدعاء . فأما إيمان عامة أهل السودان بالسيد فيفوق ذلك اضعافاً مضاعفة ويتجلى فى صورة من التعبد لا تبعد كثيراً عن العبادة . رأيت بعيني جماعة منهم تقبل سلم عربة السكة الحديد لأن قدم السيد وطئتها . وكنت تسمع هذا الجمع الحاشد حول العربة مبتهلا اليه أن يكون واسطة له عند الله في المغفرة . ولو أن السيد أمرهم في سبيل ذلك ما أمرهم لما عصوا له أمراً ولا خالفوا له كلمة . ولو انهم ظفروا من فضل رداء السيد بخيط واحد لاقتتلوا عليه يريد كل أن يكون له أو ان يلمسه إن لم يستطيع امتلاكه .

انظر ! هذا جن سليمان فك عقاله . فهذه الالوف الحاشدة تزحف نحو القطار زحفاً . وهـذه كلها تصطف على مقربة منه صفاً صفا . وهؤلاء افراد اشد من غيرهم حماسة في إيمانهم يجاهدون ليشقوا لأنفسهم

الى عربة السيد طريقا. ولامنقذ لنا من هجومهم علينا الا إيمانهم بالسيد وفرط حرصهم على رضائه . ولا مفر لآذاننا من سماع عجيج دعواتهم الى أن ينطلق القطار فيخلفهم وراءه .

انطلق القطار ، فارتفعت الاصوات بالتهليل والتكبير . افحسبت انهم جميعاً وقفوا عند تهليلهم وتكبيرهم . كلا بل انطلق جماعة منهم يسابقون القطار محاذين عربة السيد وسيقانهم الدقيقة واعصابهم المتينة تجعل منهم من هو اعدى من السليك

انقطعت الضجة وأخذ بالعادين الجهد وأبديت الى صاحبي الموظف الكبير بحكومة السودان عجبي لهذا الايمان . قال لا تعجب . فقد ذهبنا من نحو خمس عشرة سنة لافتتاح خط كسلا ومعنا السيد . وعلم أهل ذلك الاقليم بالامر فأحاطوا بالقطار أول دخوله إقليمهم لا يخشون أن توردهم عرباته الحتف أثناء سيره، بل تعلقوا بهِ مناجين مهللين يلتمسون من السيد دعاءه وبركاته مما اضطر سائق القطار للسير الهوينا مخافة أن يذهب بهذه الارواح الصارخة، ودخلنا لذلك متأخرين عدة ساعات عن الموعد المضروب لدخول القطار واقامة الاحتفال

قال آخر : ولو علمت يا سيدي أنهم ما يزالون اذا دخلوا الى داره بالخرطوم دخلوا الى البهو الذي هو فيه زحفاً على أيديهم وسيقانهم وعيونهم ثابتة في الارض لا ترتفع له منهم نظرة

لقدرت مكانة السيد العظيم وسلطانه الديني . ثم لو علمت مع ذلك أنه لا يسخر هـذا السلطان الديني لدعوة سياسية ولا يطمع فى شى الا أن يسود السلام بلاده لأ كبرت من قدره فوق ما أ كبرت ولعلمت أنه أوتي من الله حكمة وفضلاً عظيماً .

* * *

وأمعن القطار في انطلاقه وعدنا بعد تناول طعام العشاء الى مخادعنا . وانا لنعد عدتنا للنوم إذ بلغنا واد مدني . فصعد الى القطار جماعة من الشبان المصريين الذين ما يزالون مقيمون بالسودان وقصدوا الى مخدعي ، وبعد تبادل التحية سألوني أن أنزل معهم الى رصيف المحطة لنكون بعيدين عن الانظار والأسماع . وهذا بعض مظاهر الحذر الذي أشرت اليه من قبل. فمنذ قتل السير لي ستاك في القاهرة ورتبت انكلترا على قتله إخراج الجيش المصري من السودان قامت حكومة السودان باحاطة المصريين المقيمين في ربوعه برقابة شديدة مخافة أن يثيروا في السودان روح التمرد والعصيان. على ان هؤلاء الشبان الذين أحاطوا بي في واد مدني كغيرهم من المصريين الكثيرين الذين قابلتهم كانوا أشد ميلاً لاعتبار حركة سنة ١٩٢٤ حركة طائشة لاسباب عدة . ولعل أهم هذه الاسباب في نظرهم ما أتاه كثيرون من الضباط المصريين من تصرفات أدت الى عدم رضى

السودانيين ويسرت نشر الدعوة ضد الحكم المصري في السودان .
ولست أدري مبلغ ما رووا من الصحة . الا أنهم كانوا يتهمون هؤلاء
الضباط بأنهم لم يكونوا يعرفون الا شهواتهم وانهم كانوا يقضون
النهار وطرفاً من الليل في استيفائها ، سواء منها الطبيعي والشاذ وسواء
منها المطعوم والمشروب . وقد يكون لبعض هذه التهم قوام والحكومة
المصرية لم تعن بأن يكون نائباً عنها في السودان رجل له مقام الوزير
وسلطانه على المصريين الذين في السودان على الأقل

كذلك كان من شكوى هؤلاء الشبان المصريين الذين تحدثوا
إلي في واد مدني أن بعض السودانيين الموجودين بمصر لا يلقون
من عطف المصريين عليهم ما يلهج السنتهم بثناء يتردد في مختلف
جوانب السودان ويدل دلالة حقيقية على عواطف الأخوة الصادقة
بين أجزاء هذا الشعب المتصل بأوثق الروابط وأمتنها والمقيم على
ضفاف النيل الذي يسبغ عليه الحياة ونعمتها

وتركت هؤلاء الشبان الذين ودعوني بحفاوة شكرتهم واشكرهم
اليوم عليها وعدت الى مخدعي في القطار . ثم عاد القطار الى انطلاقه
فآوينا الى مضاجعنا وبقينا فيها نياماً حتى استيقظنا في الصباح على
مقربة من الخرطوم . فأخذنا افطارنا وتهيأنا للعودة الى فنادقنا نأوي
الليلتين الباقيتين على مغادرتنا ربوع السودان

خزان سنار

ومشروع ري الجزيرة

« خزان سنار » اصبح الآن الاسم الرسمي لهذا الخزان القائم على النيل الازرق تحجز مياهه لري اراضي الجزيرة الواقعة بين النيلين الابيض والأزرق . لكن هذا الاسم لم يخلع عليه بصفة رسمية حاسمة إلا في حفلة افتتاحه . أما الى يومئذ فكان كثيرون يسمونه خزان مكوار باسم البلد الذي بني عنده، كما سمي خزان اصوان باسم اصوان. ويحكون عن تغيير الاسم من مكوار الى سنار حكاية ظريفة اقصها هنا من غير أن اكفل صحتها . ذلك ان مكوار عائلة كبيرة في هذه المنطقة من مناطق السودان استوطنت الجهة واطلقت اسمها على البلد الذي استقرت به . ثم كان ان عدا الدهر على العائلة فتدهور حالها وذهب احد أبنائها يلتمس معونة الحكومة على غدر القدر . ولما سئل عما قدم هو أو اهله للحكومة من خدمة تبرر هذه المعونة قال : « يكفي اطلاق اسم عائلتنا على هذا العمل الهندسي العظيم الذي يخلد ذكر هذه الحكومة وذكر بريطانيا » فكان الجواب رفض المعونة وتغيير نسبة الخزان من القرية الواقع عندها الى مديرية سنار القائم خلالها

وخزان سنار واحد من أعمال الري الكبرى التي يراد باقامتها ضبط مياه النيل . فما يزال القسم الاكبر منها يضيع في البحر الأبيض المتوسط مع إمكان الانتفاع به لري ملايين الافدنة القريبة من النيل والصالحة للزراعة لولا عدم وصول المياه لها . وسنتناول حديث هذه المشروعات في الفصل الآتي من فصول هذا الكتاب. ولم يشيد خزان سنار إلا بعد أن قامت الحكومتان المصرية والسودانية بعمل مباحث مستفيضة عنه وعن سائر مشروعات الري الأخرى وبعد ما أجريت تجارب كثيرة لمعرفة مبلغ صلاح ارض الجزيرة لزراعة القطن ذي التيلة الطويلة من نوع قطن السكلاريدس المصري . فلما نجحت هذه التجارب اقدمت حكومة السودان على انشاء الخزان الذي حضرنا حفلة افتتاحه .

وكان السر وليم جارستن مستشار وزارة الاشغال المصرية اول من لفت النظر لامكان ري سهل الجزيرة ريًا صناعيًا في سنة ١٨٩٩ ، وايده في تقرير قدمه سنة ١٩٠٤ اللورد كرومر قنصل بريطانيا الجنرال في مصر . والى ذلك الوقت كانت فكرة زراعة القطن في مساحات واسعة بأراضي الجزيرة لا تزيد على خيال لذيذ ينظر اليه الانكليز بعين الرجاء . ذلك أن زراعة القطن لم تكن غريبة عن تاريخ السودان. فقد روى المسيو بونسيه الذي زار سنار مع المبشر زافريوس دي برفان سنة ١٦٩٩ أنه وجد بها مائة الف من السكان رائجة تجارتهم في

تصدير القطن الى حد ان اتفق السلطان الازرق — وذلك هو اللقب الذي كان يطلق على أمير هذه المنطقة الواقعة على النيل الازرق — مع ملك الحبشة على إبقاء ضابط بالنيابة عنه في شلجا عند حدود الحبشة لتحصيل العوائد على القطن الصادر واقتسامها شطرين يأخذ كل امير منهما شطراً . كذلك روى بركار الذي زار شندي في سنة ١٨١٤ أن أهم صادرات سنار كان الدمور المصنوع من القطن، كما روى ان مصانع القطن في سنار وبجرمى هي التي كانت تموِّن القسم الاكبر من افريقيا الشمالية بالملابس . على ان هذه الصناعة انحطت في السودان وتدهورت لقيام الصناعة الكبرى في اوروبا ومزاحمتها الصناعة اليدوية في الاسواق مزاحمة لم تقو هذه الصناعة اليدوية على البقاء امامها طويلاً . لذلك انقلب السودان الى زراعة الحبوب واطلق على سهل الجزيرة انه مخزن حبوب السودان كافة . فلما استعادت الجنود المصرية السودان بعد ثورة المهدى كانت زراعة القطن وصناعته قد تدهورت فيه واصبحت ضئيلة أشد الضآلة

ولما قدم السر جارستن تقريره عن إمكان ضبط مياه النيل الازرق لري الجزيرة بدأت حكومة السودان في دسمبر سنة ١٩٠٤ بمساحة اراضي هذا السهل المترامي الاطراف وبتقرير حقوق ملاك هذه الاراضي . وقد استمرت المصلحة التي انشئت لهذه المساحة قائمة بعملها حتى أتمت القسم الاعظم منه في سنة ١٩١٢ . كذلك

مدت الحكومة خطاً حديدياً ما بين الخرطوم وسنار بدأت العمل فيه في سنة ١٩٠٩ ووصلت به الى سنار في سنة ١٩١٢ ثم اخترقت به أرض الجزيرة من جنوبها حتى وصل الى كوستي على شاطىء النيل والابيض اتجه الى بلدة الابيض . وفي الاثناء بدأت الحكومة تجربة زراعة القطن فأقامت في سنة ١٩١١ محطة طلمبات عند بلدة الطيبة على الشاطىء الغربي للنيل الازرق وحفرت الترع التي تأخذ مياهها من محطة الطلمبات هذه لتغذي ثلاثة آلاف فدان زيدت بعد ذلك الى خمسة آلاف . وعهدت حكومة السودان في القيام بهذه التجارب الى نقابة زراعة السودان لما كان لهذه النقابة من سابقة القيام بتجارب زراعة القطن بزيداب في شمال الخرطوم . وبدأ نجاح تجربة الطيبة نجاحاً باهراً في سنة ١٩١٣ . فدعا هذا النجاح الى ضرورة التفكير في أصلح طرق الاستغلال . وكان لورد كتشنر يومئذ قنصل بريطانيا الجنرال في مصر . فتوسط في الامر وأتم الاتفاق على أن تكون حكومة السودان مسؤولة عن الترع الكبرى في كل ناحية يزرع القطن فيها وان تكون نقابة زراعة السودان مسؤولة عن الترع الصغرى وعن ادارة المشروع كله وامداد المزارعين بالأموال اللازمة لهم وان يقوم المزارعون بالعمل في الاراضي وان يوزع محصول القطن الناتج من الزراعة بنسبة خمس وثلاثين في المائة منه للحكومة وخمس وعشرين في المائة للشركة والاربعون في المائة

الباقية تكون للمزارع كما تكون له سائر الحاصلات التي تنتجها الارض في هـذه السنة عينها ، سنة ١٩١٣ ، وعلى أثر زيارة لورد كتشنر للسودان مع الفنيين في الري من رجال الحكومة المصرية ، وبعد ان رفضت الحكومة المصرية ضمان القرض الذي اريد اصداره بمبلغ ثلاثة ملايين من الجنيهات لاقامة خزان سنار ونجاح مشروع ري الجزيرة ، فى هذه السنة أقر البرلمان البريطاني الحكومة الانكليزية على ضمان هذا القرض . وعلى ذلك بدئت الاعمال التمهيدية لبناء الخزان في سنة ١٩١٤ . لكنها اوقفت عندما شبت نيران الحرب الكبرى .

وقد رفضت الحكومة المصرية إذ ذاك ضمان هذا القرض لأنها رأت الأمل ضعيفاً في استرداد ما دفعته للسودان سداداً لعجز ميزانيته بما بلغ احد عشر مليوناً من الجنيهات ، ولأن السياسة الانكليزية كان ظاهراً ميلها الى استئثار انكلترا بالسودان بعد ان تكون مصر قدمت له من الاموال ما مكنه من الاستقلال مالياً عنها . وربما كان للحكومة وللجمعية التشريعية عن ذلك من العذر أن الاموال التي دفعتها مصر للسودان في السنوات المتعاقبة كانت ملايين عدة . وضمان مصر لقرض الجزيرة قد ينتهي بأن تدفعه مصر فتضاف هذه الملايين الى تلك لتعود فائدتها آخر الأمر على انكلترا وحدها . غير أن طائفة من المصريين كان لهم رأي غير هذا

الرأي . وكانوا يعتقدون ان كل عمل هندسي او مالي يربط مصر بالسودان يقوي حجـة مصر في السودان ويكون نقطة ارتكاز لاولوية مصر في أن تمسك بيدها تصريف مياه النيل. ويذهبون الى اكثر من هذا، إذ يقولون ان حكومة السودان كانت على استعداد لأن يشترك المصريون ملاكاً ومزارعين في استغلال سهل الجزيرة ولكنهم أظهروا اعراضاً تاماً عن هذا الاشتراك كما اظهرت الحكومة المصرية الرغبة كل الرغبة عن أن يكون لها في استغلال السودان يد أو رأي .

وربما كان هذا الذي يقال صحيحاً . وربما كان مركز مصر في السودان غير ما هو اليوم لو أن الحكومة المصرية ضمنت قرض الجزيرة الاول الذي زيد بعـد انتهاء الحرب من ثلاثة ملايين الى ستة لارتفاع أسعار الخامات والاجور اللازمة لاتمـام بناء الخزان . وربما كان من الخير حقاً لو أن المصريين ذهبوا لاستغلال هـذا السهـل المترامي الاطراف وحققوا بذلك تحقيقاً فعلياً حجتهم بأن السودان هو المهجر الطبيعي لهم فلا سبيل لفصله عنهم . لكن هـذا الذي تبدو صحته اليوم لم يكن واضحاً مثل هذا الوضوح قبل الحرب حين كانت انكلترا صاحبة السلطان الفعلي المطلق في مصر ، وحين كان المصريون في شـدة حذرهم من سلطانها في السودان يخافون أن يتقدموا نحوه خطوة . لذلك كان لحكومته يومئذ ، أو بالاحرى

كان للجمعية التشريعية التي رفضت ضمان الحكومة المصرية قرض الجزيرة ، العذر كل العذر عن هذا القرار

تنحت مصر إذن عن الاشتراك في استغلال سهل الجزيرة فأقدمت انكلترا بتشجيع لورد كتشنر على الانفراد بهذا الاستغلال. وأقر البرلمان البريطاني ضمان الحكومة الانكليزية قرض الجزيرة فبدىء بالاعمال التمهيدية لانشاء خزان سنار ، ثم استعرت نار الحرب فأوقفت هذه الاعمال . لكن إيقافها لم يمنع من الاستمرار في قيام نقابة زراعة السودان باجراء تجارب جديدة خصوصاً بعدما تقرر أن تكون مساحة الاراضي التي يرويها خزان سنار ثلاثمائة الف فدان يزرع ثلثها قطناً في كل عام . فأنشأت النقابة المذكورة في أوائل سنة ١٩١٤ محطة طلمبات جديدة في بركات لري ستة آلاف فدان . ثم أنشأت بعد ذلك محطة أخرى لري ١٩٥٠٠ فدان في ناحية الحوش بدأت استغلالها منذ سنة ١٩٢١ ، ومحطة رابعة في وادي النو لري ثلاثين الف فدان بدأت استغلالها منذ سنة ١٩٢٢ . وكان هذا الاستغلال على قاعدة زراعة الثلث قطناً والثلث ذرة ولوبية وترك الثلث الباقي بغير زرع . أي على قاعدة الدورة الثلاثية

ولم تكن غاية حكومة السودان ولا نقابة زراعة السودان من انشاء محطات الطلمبات هذه مجرد القيام بتجارب لزراعة القطن . فقد

كانت تجربة الطيبة كافيـة منذ سنة ١٩١٣ . لكن زراعة القطن
كانت قد اندثرت من السودان قبل ثورة المهدي بزمن غير قليل .
والمصريون المدربون على زراعة القطن رفضوا الاشـتراك في
الاستغلال . وقد عطلت الحرب استمرار القيام باعمال انشاء الخزان.
فرأت الحـكومة ورأت النقابة الاستفادة من هذا الظرف لتدريب
اكبر عدد ممكن من المفتشـين الانكليز ومن أهالي السودان ومن
الوافدين عليه من النيجريا وغير النيجريا على القيام بهـذه الزراعة
ومراقبتها حتى إذا تم بناء الخزان وكانت الترع والقنوات في الثلاثمائة
الف فدان التي أعدت في المشروع قد تم انشاؤها امكن زرع ثلثهـا
أو ما يقرب من الثلث قطناً دفعة واحدة بمعرفة هؤلاء الانكليز
المفتشين والاهالي المزارعين الذين تدربوا على زراعتـه . وقد أثبت
الزمن بعـد نظر الحكومة والنقابة في هذا الشأن اذ أمكنت زراعة
ثمانين الف فدان قطناً على أثر تمام بناء الخزان مباشرة في شتاء سنة
١٩٢٥ — ١٩٢٦

* * *

أما هذه الثلاثمائة الف فدان التى تقرر منذ البداية ان يتكون منها
مشروع ري الجزيرة فتمتد على الشاطىء الغربي للنيل الازرق مبتدأة
عند قرية الحاج عبد الله على بعد سبعة وخمسين كيلو متر الى شمال

مكوار حيث يقوم الخزان . (وقد نسي الناس في السودان اسم قرية الحاج عبد الله وأصبحت هذه النقطة معروفة عند المهندسين باسم الكيلو سبعة وخمسين) . ثم تستمر في امتدادها شمالاً على محاذاة النهر وسكة الحديد مدى خمسة وثمانين كيلو متراً . ويختلف عرضها من الشرق الى الغرب بين أربعة عشر وخمسة وعشرين كيلومتراً . ويسيرٌ وأمامك هذه الابعاد أن تتصور هذه القطعة من السهل المطمئن لا تقوم عليه ربوة من الربى ولا عقبة من العقبات محاذية النيل الازرق المخصب ، وأن تتصور الى جانب ذلك أنها ليست الا جزءاً من عشرة أجزاء من تلك الأراضي التي يمكن ريها بالمشروعات والتى تبلغ ثلاثة ملايين فدان من خمسة ملايين هى مجموع مساحة سهل الجزيرة . وان تتصور أخيراً ان هذه الثلاثمائة الف فدان تقررت سنة ١٩١٣ وها هي حكومة السودان ونقابة زراعة السودان تراها الآن غير كافية بالحاجة الزراعية مع أنها لم يبدأ بزرعها الا عام ١٩٢٥ - ١٩٢٦ أي منذ عام واحد فقط

وهذه الثلاثمائة الف فدان ، كغيرها من أراضي سهل الجزيرة، لم تكن ملكاً لحكومة السودان وهى ليست الآن ملكاً لها . بل هى في ملك أهالي السودان الذين كانوا يزرعونهـا على المطر حبوباً جعلت الجزيرة - كما اسلفنا - مخزن حبوب السودان . وقد رأت الحكومة ان نظام مشروع الجزيرة لا ينتج ثمراته إذا بقيت هذه

الأراضي تحت يد ملاكها . ورأت من ناحية أخرى أنه لا بد لنجاح المشروع من أن تكون للاهالي مصلحة مادية فيه . فاستأجرت أراضي المشروع لمدة أربعين سنة بايجار سنوي عشرة قروش للفدان كما اشترت الاراضي اللازمة للترع الرئيسية وغير الترع الرئيسية من المنافع العامة بثمن جنيه واحد للفدان . ولما كانت مساحة هذه الاراضي قد حددت تحديداً دقيقاً بمعرفة الهيئة التي نوهنا من قبل بذكرها والتي اتمت عملها في سنة ١٩١٢ وسجلت أملاك الاهالي بأسمائهم فقد كانت المعاملة بينهم وبين الحكومة لا تثير نزاعاً من هذه الجهة

على ان هؤلاء الاهالي الذين استأجرت الحكومة اراضيهم يجب ان يكون لهم الى جانب هذا الايجار الذي يبدو تافهاً ضئيلاً متى استغلت الأرض بزراعة القطن مصلحة أخرى تجعلهم لا يتذمرون ولا يشعرون بأن حيفاً وقع عليهم . وقد حلت الحكومة والنقابة هذه المسألة بصورة تراها وتحكم على عدالتها بعد ان نصف لك كيف نظم ري الجزيرة .

أصبحت الثلاثمائة الف فدان اذن في حيازة الحكومة التي استأجرتها . وهذه الثلاثمائة الف فدان تحاذي ترعة الجزيرة حيناً وتحيط بها حيناً . وقد قسمت الحكومة والنقابة هذه المساحة الى تسعة عشر قطعة كل منها تبلغ نحو خمسة عشر الف فدان ثم قسمت كل قطعة مساحات مربعة . وتمر الترع الرئيسية الآخذة من ترعة

الجزيرة وبين كل واحدة وما بعدها نحو ١٥٠٠ متر . ومن هذه الترع تروى الأرض عن طريق فتحات منتظمة أدق نظام .

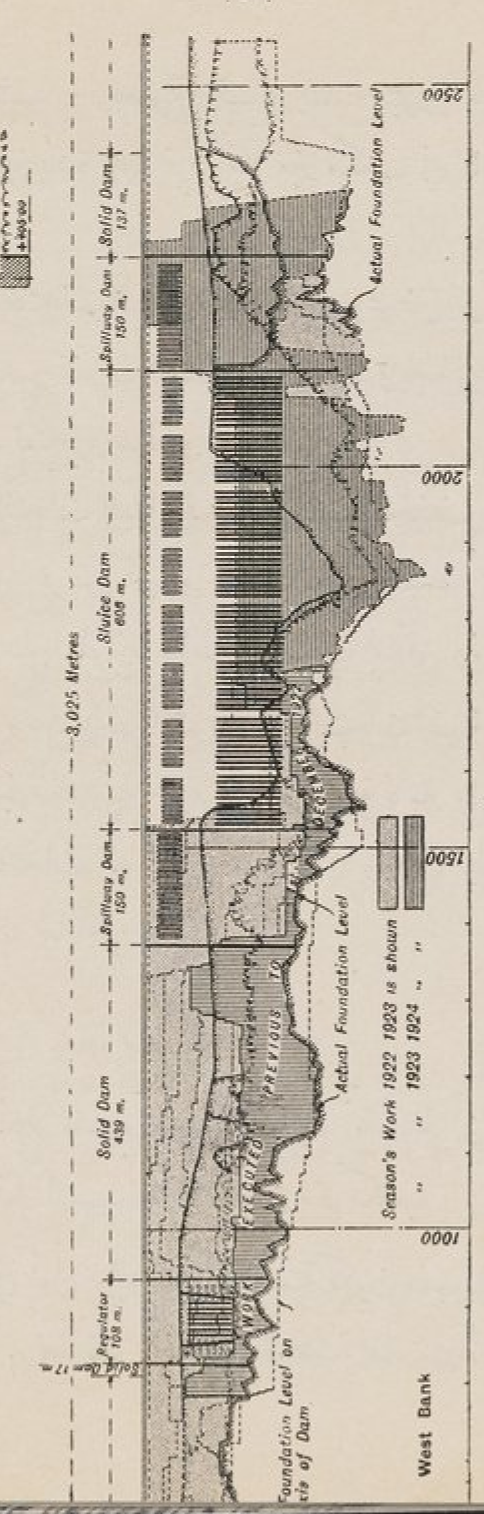
وقد رأت الحكومة ان قدرة المزارع في الاستغلال الصالح لا يمكن ان تعدو العمل في ثلاثين فدانا يزرع منها عشرة أفدنة قطنا وعشرة ذرة ولوبية ويترك العشرة الباقية بغير زراعة . لذلك جعلت هذه الثلاثين فدانا وحدة مايضع الرجل عليه يده في أراضي الجزيرة. وملاك الارض الأصليون يفضلون على من سواهم في الاستغلال . فكل مالك يضع يده على ثلاثين فدانا من أرضه . ولكي لا يشعر كبار الملاك بأنهم غبنوا في تأجيرهم أراضيهم للحكومة جعلت القاعدة أن يكون للمالك حق اقتراح الأشخاص الذين يستغلون سائر ما استأجرتهُ الحكومة من ملكه . وهو غالب الأحيان يقترح من يتصلون به بصلة القربى . وما دامت تقارير المفتشين عن هؤلاء المزارعين صالحة فلا محل لاجلائهم عن الارض التي يستغلونها

أشرنا الى أن محطات الطلمبات هي التي قامت بالتجارب الأولى كما قامت بتدريب المزارعين على طرق الاستغلال وأدواتهِ ، والتي استمرت كذلك الى أن تم بناء الخزان في سنة ١٩٢٥ بعد ان بدأت الأعمال الاولى التمهيدية فيه في سنة ١٩١٣ . وأشرنا كذلك الى ان هذه الاعمال أوقفت على أثر إعلان الحرب العامة في سنة ١٩١٤.

فلما انتهت الحرب عاد المسيو السندريني الذي وكلت الحكومة اليه المشروع يباشر أعمال الانشاء . لكن ارتفاع الاسعار على أثر الحرب جعل المبالغ التي قدرت لاتمام البناء غير كافية . على أنهُ استمر في العمل لحساب الحكومة وباشر منه قسماً غير قليل . وفي هذه الاثناء رأت حكومة السودان ان خطة الانشاء على هذه الصورة ، صورة الحساب الجاري ، تبهظها بالنفقات . فلما قررت الحكومة البريطانية رفع قرض السودان الى ستة ملايين طرح إكمال بناء خزان سنار في المناقصة ورسا على محلات بيرسون وأولاده بلندره فبدأوا العمل فيه منذ ابريل سنة ١٩٢١، وهم الذين قاموا باتمامهِ

وسبقنا الى وصف الخزان حين تمر فوقه . وذكرنا ان طوله ومعه الحوائط الصماء يبلغ ٣٢٥٠ متراً مد عليها شريط سكة الحديد استعداداً لانشاء خط مكوار — كسلا . ونثبت الآن مذكرة فنية عن خزان سنار وضعها الفي بك الذي كان مدير أعمال تفتيش ري مصر بالخرطوم وتكرم باطلاعنا عليها كما تكرم بايقافنا على ما طلبنا من المعلومات الخاصة بهذا المشروع وبمشروع جبل الأولياء. وان كان قد اعتذر عن الافضاء لنا بما رأى أن وظيفته لا تسمح له بالافضاء به

⋆ ⋆ ⋆



(صورة الخزان أثناء تشييده)

فتحات السد — معمولة باتساع يسمح بمرور اكبر تصرف للنيل الازرق وزيادة وهو ١٥٠٠٠ متر مكعب في الثانية والفتحات كالآتي :—

أولاً — الفتحات السفلى وعددها ٨٠ وعرض كل واحدة ٢ متر وارتفاع ٨و٤٠ ومنسوب العتب ٢ و ٤ ٤ ويعمل عليها الموازنة ببوابات حديد تفتح بواسطة ونش بخاري .

ثانياً — الفتحات العليا وتسمى فتحات التخفيف وهي ٧٢ فوق الفتحات السفلى عرض كل واحدة ٣ متر وارتفاعها ٢ متر وهذه الفتحات يعمل عليها الموازنة بواسطة أخشاب غما أفقي وترفع بهلب باليد

ثالثاً — يوجد بالجهة الشرقية من الفتحات المبينة عاليه ٢٠ فتحة عليا ومثلها في الجهة الغربية — وعرض كل فتحة ٥ متر وارتفاعها ٢ متر — وعتب عموم الفتحات العليا على منسوب ٢ و ٤١٧ وتفتح وتقفل بواسطة أخشاب غما أفقي

سعة الخزان وملوه وتفريغه :

أولاً — أعلا منسوب تصل اليه المياه أمام الخزان هو ٧ و ٤٢٠ ويخزن على هذا المنسوب ٦٣٦ مليون متر مكعب

ثانياً — في أول يوليو من كل سنة يكون منسوب أمام الخزان على ٥و٤١٤ ويرتفع تدريجياً في مدة خمسة عشر يوماً الى ٢٠و٤١٧

لاعطاء مياه لري القطن بالجزيرة وتحفظ المياه على هذا المنسوب الى أول نوفمبر .

ثالثاً — من أول نوفمبر الى ديسمبر يرتفع منسوب المياه تدريجياً الى ٧ و ٤٢٠ ويبقى على هذا المنسوب الى ١٨ يناير .

رابعاً — من ١٨ يناير تأخذ الجزيرة كافة احتياجاتها من الماء المخزون أمام والتصرف الذي يكون في النيل الازورق في الروصيرص أي تصرف النهر الطبيعي يمر خلف الخزان كما هو لاحتياجات القطر المصري لغاية أول يوليو حيث يتكرر الترتيب المبين عاليه .

ملحوظة — قد اتبع نظام خاص في الحجز على الخزان هذا العام لعدم أخذ مياه كثيرة في يوليو يمكن أن يحصل منها ضرر للقطر المصري وفي أول ديسمبر من هذا العام تم حفظ أمام الخزان على الدرجة المطلوبة وهي ٧ و ٤٢٠ .

ترعة الجزيرة :

أولاً — فم الترعة عبارة عن ١٤ فتحة عرض الواحدة ٣ متر وارتفاع ٥ متر والعتب على منسوب ١٠ و ٤١١ — من هذه الفتحات سبعة مقفولة بالخرسانة المسلحة، وتعمل الموازنة بواسطة بوابات حديد ترفع بونش يدار بواسطة رجلين .

ثانياً — الترعة عرض قاعها ٢٦ متر وارتفاع المياه بها ٤٥و٣ متر

وانحدار ٧ سنتي في الكيلو وذلك كاف لري المساحة الحاليــة وهي ٣٠٠٠٠٠ فدان ومسطاح الترعة يسمح بتوسيعها عند زيادة الزمام

ثالثاً — أول قناطر حجز على الترعة عند كيلو ٥٧ ويتفرع أمامها خمسة ترع ومصرف على النيـــل لتخفيف المياه بالترعة وعندها يبدأ الري بالجزيرة وكل الري بالراحة

رابعاً — ثاني قناطر حجز عند كيلو ٧٧ وأمامها ثلاث ترع ومصرف على النيل للتخفيف ثم قناطر حجز أخرى عند كيلو ٩٩ ثم عند كيلو ١٤٤ .

الارض المقرر زراعتها بالجزيرة

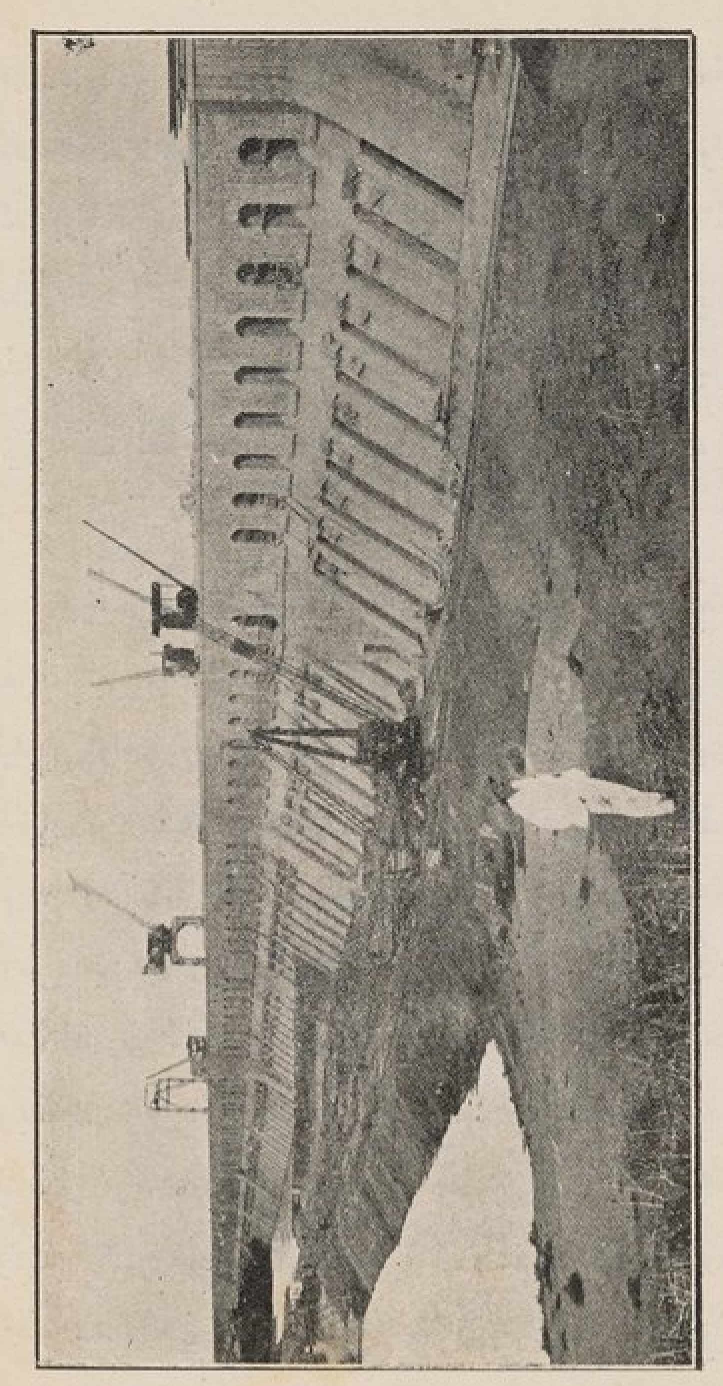
هذا العام تم ري ثمانين الف فدان قطن و ٤٩٠٠٠ فدان ذرة وعشرة آلاف لوبيا والزراعة حالتها حسنة

والمقرر هو ان يزرع مائة الف قطن ومثلها ذرة وبقول ويترك مائة الف فدان بور

السبعة فتحات المقفولة بفم الترعة والمسطاح المتروك بالترعة يسمحان بزيادة الزمام الى مليون فدان

* * *

وقد طرأ على بعض ما في هذه المذكرة تعديلات فيما يتعلق بالتواريخ التي تبدأ فيها حاجة مصر لتصرف النهر الطبيعي نعرض اليها



(صورة الخزان من أمام حال الانتهاء من تشييده)

حين الكلام عن مشروعات ضبط النيل كافة . كما ان سعة الخزان
بعد ملئه للمرة الاولى تبين انها ٨٠٠ مليون متر مكعب . والمناسيب
المذكورة فيها مذكورة بالمقارنة الى ارتفاع مياه البحر الابيض المتوسط .
أما ماورد عن مسطاح الترعة وكونه يسمح بتوسيعها عند زيادة الزمام
فذلك لأن الخزان يتسع لخزن مياه تكفي زراعة نصف مليون فدان
اي ضعف المساحة الحالية الا قليلا . والسبعة الفتحات المقفلة بالخرصانة
من فتحات ترعة الجزيرة يكفي لامداد هذا المقدار بالمياه اللازمة له

ويحسن أن ننبه القارىء كي يسهل عليه إدراك حكمة تواريخ
الملء والتفريغ الواردة في هذه المذكرة الى أن زراعة القطن بالسودان
تبدأ في أواخر شهر يوليو وأوائل شهر أغسطس . فرفع مستوى الماء في
الخزان من ٤١٤ر٥ وهو الرقم الموازي لمنسوب الفيضان الطبيعي للنهر
الى ٤١٧ر٢٠ في النصف الثانى من شهر يوليو إنما يقصد به الى تغذية
أرض الجزيرة بمياه الراحة اللازمة لري الارض وزرعها قطناً . ويبقى
هذا المنسوب ثابتاً الى شهر نوفمبر حين تخلو مياه النهر من الطمي
ويمكن التخزين . وفي شهر نوفمبر يرفع منسوب التخزين في سنار الى
مستوى ٤٢٠ر٧ ويبقى الى أن تبدأ حاجات مصر للماء لزراعة القطن
ولتغذية النهر . وإذ كانت أولوية مصر أمراً مقرراً معترفاً به من
الجميع فقد وجب البدء في تفريغ الخزان بحيث تأخذ أراضي الجزيرة

كل حاجاتها منــه ويبقى تصرف النهر الطبيعي وقفاً على مصر. والواقع ان حاجة أراضى الجزيرة للماء تقل بعد شهر يناير الذي تبدأ فيه الجنية الاولى من جنيات القطن وتنتهي في شهر مارس فلا تبقى ثمة حاجة لغير مياه الشرب. وهـذه يكفيها ما مقداره تصرف عشرة أمتار في الثانية.

فاذا كان شهر يوليو وابتـدأت الحاجة الى المياه في الجزيرة لزراعة القطن وابتـدأ الفيضان بجعل رفع الماء في الخزان غير ضار بحاجات مصر بدىء في عملية رفع المياه في الخزان من جديد

* * *

لكن مسطح أرض الجزيرة يبلغ، كما سبق القول، خمسة ملايين من الأفدنة أو يزيد. والنية متجهة الى استغلال ثلاثة ملايين منها. فكيف السبيل الى هذا الاستغلال وخزان سنار لا يكفي ما يحجزه من المياه الا لري نصف مليون واحد؟ أم ان مشروع الجزيرة ما يزال واقفاً في ذهن أصحابه عند ري هذا النصف المليون الواحد من الافدنة؟

لا هذا ولا ذاك. والفكرة الانكليزية متجهة كل الاتجاه الى الى ري ثلاثة ملايين من أفدنة الجزيرة واستغلالهـا لزراعة القطن الطويل التيلة. والوسيلة الى ذلك في نظرهم ليست تعلية خزان سنار ولكن إقامة حجز على بحيرة تسانا في جبال الحبشة لحجز ما ينزل في

هذه البحيرة من الأمطار مما ينحدر أثناء الفيضان مع مياهها في النيل الازرق ويذهب ضياعاً في البحر الأبيض المتوسط . واذا كان خزان سنار الذي يتسع لحجز ٨٠٠ مليوناً من الأمتار المكعبة يكفي لري نصف مليون من الأفدنة فمن الممكن حجز ثلاثة مليارات ونصف مليار على بحيرة تسانا . ولهذه الغاية تجري مفاوضات مستمرة بين حكومة بريطانيا وحكومة الحبشة

والظاهر ان هذه الفكرة ، فكرة الحجز عند تسانا ، لم تكن متمكنة من نفوس الذين الذين بدأوا مشروع ري الجزيرة في سنة ١٩٠٤ وفي سنة ١٩١٢ . فقد روى لي أحد كبار الفنيين من رجال الري ان حكومة الحبشة عرضت قبل الحرب أن يدفع لها ربع مليون من الجنيهات اذا أرادت مصر أو السودان إقامة حجز على تسانا ، فرفضت الحكومتان المصرية والبريطانية هذا العرض . أما اليوم فحكومة الحبشة تطلب هذا المبلغ جزية سنوية مقابل انتفاع من يريد الانتفاع بأراضي هذه البحيرة

وقد يتساءل بعضهم : كيف تحجز المياه التي تسقط في فصل الامطار في بحيرة تسانا مع أن هذه البحيرة هي التي تغذي النيل الازرق أثناء الفيضان . وماء النيل الازرق في هذه الفترة مشبع بالطمي فيجب أن تكون مياه تسانا مشبعة بالطمي كذلك . فاذا حجزت رسب الطمي في قاعها فارتفع هذا القاع وبلغ من ارتفاعه

على تطاول السنين أن تطمى كلها . وهذا تساؤل من لا يعرف مصدر الطمي وطبيعة أراضي البحيرة المذكورة . فهي صخرية واقعة في مرتفع جبلي . ومياه الامطار التى تنزل اليها تنزل اكثر صفاء من مياه النيل في أي وقت من أوقات السنة . فأما الطمي فيتكون من اختلاط مياه الامطار بسفوح جبال الحبشة ومن انحدار الماء المشبع بتراب هذه السفوح الى مجرى النيل الازرق بعد خروجه من بحيرة تسانا . لذلك كان حجز هذه المياه في هذه البحيرة منذ نزول الأمطار فيها صالحاً من الجهة الفنية غاية الصلاح وكانت خزاناً طبيعياً بديعاً لري سهل الجزيرة ولترك ما يفيض من الماء ينحدر الى مصر

على أن الحكومة البريطانية تتباطأ في مفاوضاتها مع الحبشة بهذا الشأن بعد ما بدا لمشروع الجزيرة وجه من الصعوبة لا يتعلق بالري ولكن يتعلق بالآفات التي أصابت زراعة القطن فيها . فقد كانت نتيجة زراعة القطن في أول أمره تفوق كل تصور ، إذ أنتج الفدان من السكلاريدس اكثر من خمسة قناطير ونصف قنطار. لكن أمراضاً غير معروفة في مصر وما تزال أسبابها الحقيقية غامضة سرعان ما أصابت النبات فأضعفت من متوسط محصول الفدان إضعافاً جعل حكومة السودان والحكومة البريطانية تفكران في الامر تفكيراً جدياً. ونظرة في هذا الاحصاء الرسمي عن حاصل الفدان في الاماكن المختلفة والسنين المختلفة تقنع القارىء بأن الأمر يستحق التفكير بالفعل :—

السنة	الطيبة	بركات	الحوش	وادي النو
١٩١١ — ١٢	٥و٣٢	—	—	—
١٩١٢ — ١٣	٥و٦٢	—	—	—
١٩١٣ — ١٤	٣و٨٠	—	—	—
١٩١٤ — ١٥	٣و١٠	٥و٣٩	—	—
١٩١٥ — ١٦	٣و١٠	٣و٤٨	—	—
١٩١٦ — ١٧	٣و٤٧	٣و٢٠	—	—
١٩١٧ — ١٨	٤و١٠	٢و٦٦	—	—
١٩١٨ — ١٩	٤و١٣	٣و٥٠	—	—
١٩١٩ — ٢٠	٥و٦٠	٤و٩٨	—	—
١٩٢٠ — ٢١	٣و٢٠	٣و٥٠	—	—
١٩٢١ — ٢٢	٣و٤٦	٣و٨٤	٤و٣٢	—
١٩٢٢ — ٢٣	٤و٩٠	٤و٠٠	٣و٤٠	—
١٩٢٣ — ٢٤	٢و٥٤	٢و٨٧	٢و٨٨	٢و٨٨
١٩٢٤ — ٢٥	٢و٣٣٨	٢و٢٨٨	٢و٣٩٠	٢و٠٤٦

هذا الاحصاء صريح في الدلالة على خطر الحالة وتطلبها العناية والبحث . لذلك قامت الجمعية الامبراطورية لزراعة القطن بالاشتراك مع نقابة زراعة السودان ومع حكومة السودان بوضع برنامج شامل

للمباحث التي يجب أن تعمل لفحص أسباب هذه الامراض ووسائل علاجها . وتكونت بلندرة هيئة استشارية مثلت فيها هـذه الجهات الثلاث ،وظيفتها فحص التقارير الزراعيـة الخاصة بمشروع الجزيرة واسداء النصيحة فيما يجب القيام به من المبـاحث في العام الذى يلي هذه التقارير

أما مزرعة مباحث الجزيرة الكائنـة على مقربة من واد مدني والممتدة على مساحة قدرها ثلاثمائة وخمسون فدانا فقـد أمدت بما يجب لبحث المسائل التي تحسن زراعة الجزيرة . فأقيمت المعـامل ليعمل فيها علماء للنظر فيما يقتضيه البحث الكيمائي والنباتي ولاجراء التجارب الخاصـة بانتقاء بذرة القطن التي يمكن أن تصلح في أراضي الجزيرة من غيرأن تصاب بما أصيبت البزرة القديمة به من الآفات .

واكبر ظن الفنيـين في الوقت الحاضر أن هذه الآفات التي تفشت في زراعة القطن سببها رطوبة الأرض بعد ريها ريا صناعيا ، وأن هذه الرطوبة لم يقف أثرها عندتوليد جراثيم لا تصيب الاظاهر شجرة القطن بل تولدت عنها جراثيم امتدت الى بذور القطن نفسه . على أن هذا ما يزال في حيزالظن الى أن تجلو المباحث العلمية الحقيقة

غيرأن تباطؤ الحكومة البريطانية في المفاوضات الخاصة بمشروع تسانا لم يثنها عن مطالبة الحكومة المصرية بزيادة الثلاثمائة الف فدان

التي تزرع الآن في الجزيرة الى اربعمائة وخمسين الفاً . وقد بحث هذا الطلب بعد صدور الانذار البريطاني لمصر على أثر مقتل سير لي ستاك باشا فى القاهرة مما سنفصله في الفصل القادم . ونحسب الحكومة المصرية لا ترى من إجابة هذا الطلب مانعاً

خزان سنار ومشروع الجزيرة هما إذن حلقتان من سلسلة حلقات مشروعات الري الكبرى . فما هي هذه المشروعات ؟ والى اي حد وصلت ؟ وما وجه الحق ثم ما وجه الخطأ فيها ؟ ذلك ما نعرض له بالبحث الآن

يوم في جبل الاولياء
مشروعات الري الكبرى

كانت زيارة جبل الأولياء ومشاهدة ما تم هناك من الأعمال لانشاء قنطرة الحجز التى أريد تشييدها لفائدة الري في مصر خاصة، من أول ماعنيت به منذ نزلت الخرطوم. ذلك بأن الحكومة المصرية كانت قررت هذا المشروع، وبأن الاعمال كانت سائرة فيه على مهل حقاً، ولكنها كانت مستمرة في انتظار طرحه للمناقصة العامة وتولى أحد البيوتات الهندسية الكبرى إقامته. ولم يقم أحد باعتراض جدي على هذه الأعمال واستمرارها منذ انتهت اللجنة الدولية التى بحثت الخلاف الذي كان حاصلاً بشأن مقاييس مشروعات ضبط النيل بين السير وليم ولككس والمستر كندي من ناحية والسير مردخ ماكدونالد من الناحية الاخرى. فمن يوم حكمت هذه اللجنة بصحة نظرية السير ماكدونالد وأبطلت ماتمسك به خصماه في شأن المقاييس التى أقام هو عليها حسابه وفي شأن توزيع المياه من طريق قناطر الحجز بين مصر والسودان توزيعاً لا يضر أولوية مصر التاريخية — من ذلك اليوم استمرت الاعمال في مكوار الى ان تمت إقامة خزان سنار، وأرادت الحكومة المصرية الاستمرار في تشييد خزان جبل

الاولياء لولا أن الاموال التى قدرت من قبل الحرب لاقامة هـذا الخزان وقدرها مليون من الجنيهات لم تصبح كافية بسبب الغلاء الذي عقب الحرب ، وان الحكومات المصرية التى كانت تتوالى في ذلك الحين كانت في وضع سياسي غير منتظم لم يمكنهـا من تقرير الاعتمادات اللازمة لانشاء خزان جبل الاولياء . فلما توالت الحكومات بعد إعلان مصر استقلالها لم تستطع إحداها الفصل في الموضوع الى ان تولى معالي اسماعيل باشاسري وزارة الأشغال منذ أواخر سنة ١٩٢٤ الى شهر مايو سنة ١٩٢٦ . وإذ كان معاليه ممن عملوا في تقرير مشروعات الري ومن بينها جبل الاولياء فقـد قررت الحكومة التى كان فيها الاعتمادات اللازمة للسير في العمل

والى ذلك الحين لم تكن فكرة إهمال خزان جبل الاولياء وتعلية خزان اسوان الحالى تعلية ثانية قد وجدت أنصاراً في الحكم ولا كانت قدوجدت أنصاراً أقوياء خارج الحكم . لذلك كان طبيعياً أن أعني بزيارة جبل الاولياء وأرى سير الاعمال فيه . وكان ظني أن أتمكن من الذهاب اليه صبيحة يوم الثلاثاء ١٩ يناير إذ كان برنامج حفلة افتتاح خزان سنار خالياً يومئذ . لكن اشتغال مواطنينا القائمين بأمر جبل الاولياء باستقبال سري باشا وزير الاشغال لم يجعل اجابة طلبي هذا ميسورة . فقضيت الثلاثاء بأم درمان وانتظرت الى يوم السبت الذي يلي وصولنا الى الخرطوم بعد حفلة سنار ،وفي هذا اليوم

أعددت عدتي للذهاب مع مفتش ري جبل أولياء محمد بك صبري شهيب الذي تفضل بدعوتي كي أصحبه في سيارته .

تقع قرية جبل الاولياء على بعد خمسة وأربعين كيلو متراً الى جنوب الخرطوم على النيل الابيض . وقد اختيرت بعد ان أثبت جس قاع النهر ان القاع صخري عندها فلا يحتاج الى نفقات جسيمة يجب انفاقها للوصول الى طبقة صخرية بعيدة عن القاع بعداً كبيراً . وكانت قد دارت بخاطر السير وليم ولككس حوالي سنة ١٩٠٩ فكرة انشاء قنطرة الحجز على النهر بين الخرطوم وأم درمان لتغني في الوقت نفسهُ عن إقامة جسر بين عاصمتي السودان [١] . لكن هذه الفكرة أهملت لما كان يترتب على الحجز من اتساع مسطح المياه اتساعاً يضر البلدين جميعاً ضرراً جسيماً

كنت أود لو استطعت بدل الذهاب في السيارة ان أركب السفينة التي يسافر فيها المهندسون من الخرطوم الى جبل الاولياء. لكن قيامها في منتصف الساعة السادسة صباحاً وخشيتي عدم التبكير في اليقظة عدلا بي عن هذا الميل . فلما استيقظت في الصباح ألفيت الوقت مبكراً مما جعلني أود لو وجدت الوسيلة لاخطار مواطنينا المسافرين على ظهر النهر . وزاد هذا الميل عندي ما كان من صحو السماء ودفء الجو وتغريد العصافير فوق أشجار الفندق . لكني بعد

---

(١) كذلك سمعت من معالي سري باشا

قليل من التفكير وأنا ما أزال في سريري ممتعاً بما حولي من دواعي الكسل عدت ففضلت أن أتناول إفطاري على مهل في انتظار مجيء السيارة الساعة السابعة والنصف. وقبيل هذا الموعد كنت قد أتممت عدتي وغادرت الغرفة الى شرفة الفندق حيث انتظرت الى حين حلوله. ولم يحضر صبري بك فنزلت الى الشارع الفخم المحاذي للنيل الازرق أسير فيه ذهاباً وجيئة. ووصلت من مسيرتي الى حديقة الحيوانات فدخلت اليها وطفت أرجاءها وتمتعت في هذا الوقت الظريف الرقيق هواؤه الهادئة شمسه بمناظر الغزال والنعام وما تزال هي الأخرى ناعمة بيقظة النهار وانطواء بساط الليل. واذ كانت الحديقة لا تبلغ ركناً من أركان حديقة القاهرة فقد خرجت منها بعد ربع ساعة. ويممت الفندق من جديد. وإذ وصلت الى بابه كان صبري بك قد دخل يسأل عني فتبادلنا التحية وركبنا السيارة التي اخترقت بنا شوارع الخرطوم وتخطت الى فضاء كأنه الصحراء

نعم كأنه الصحراء! فهو ليس صحراء كالتي قطعها القطار بين حلفا وابي حمد والتي لا تعرف من صور الحياة غير «التكلات» المنقطعة عند المحطات من نمرة ١ الى نمرة ١٠؛ لكنه مع ذلك رمال فسيحة ممتدة يقدم عليها الحين بعد الحين «ديم» به بعض تكلات تشهد أن الحياة به غير منقطعة كل الانقطاع وتغطيها شجيرات يدعونها «العشار» أشبه شيء في اقعائها على الارض وفي قتام لون ورقها وفي

صمتها الموحش لا يحييه طير ولا حشرة بتلك الشجيرات التى تقوم الى جانب كثير من مقابر الارياف . وفوق هـذه الرمال وبين تلك الشجيرات ظلت السيارات في انطلاقها مسرعة وظللنا لا نرى إنساً مدى ساعة ونصف الساعة . وحتى هذه «التكلات» القائمة في بعض « الديم » والمبنية من الطين لم يقم حولهـا رجل ولا امرأة . ثم بلغنا قرية جبل الاولياء . وهي أقرب للكفور والعزب منها لقرى الريف . بل أقرب للكفور والعزب الصغيرة منها الى العزب الكبيرة . ومن قبل أن نمر بهذه القرية تبدى أمامنا جبل قليل الارتفاع هو الذي سميت باسمه القرية . وهو جبل قاحل من حجر جيرى كسته الشمس المحرقة لوناً كالحاً .

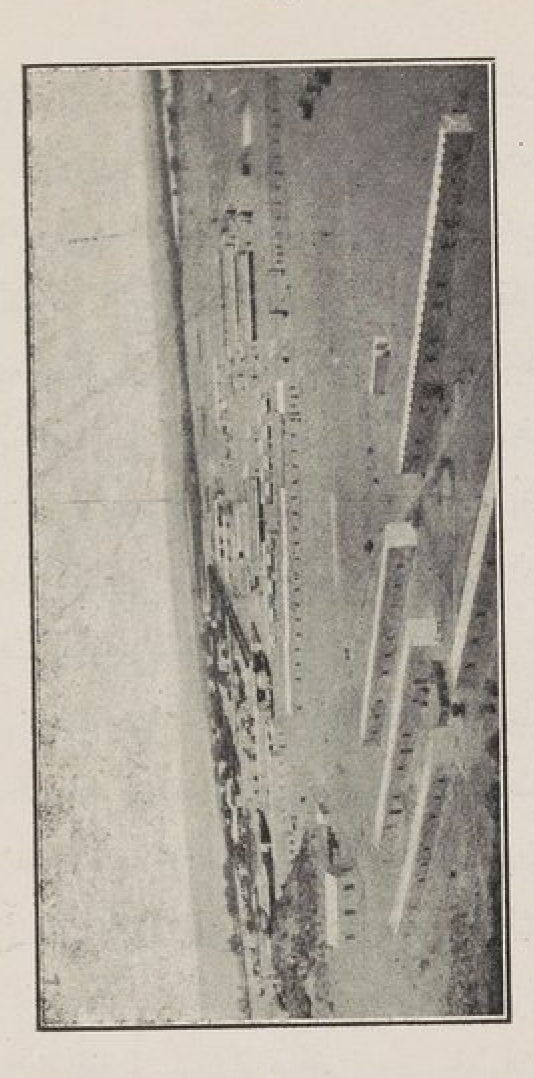
وتقدمنا نحو مستعمرة الخزان التى أقامتهـا الحكومة المصرية للمهندسين والعمال الذين سيقومون بالتشييد ومراقبته . وفي هـذه المستعمرة منازل عدة وبها مستشفى وقد زرعت فيها بعض الاشجار ، وسرنا بين هـذه المباني التى أقيمت من حجر الجبل الى ان وصلنا مقر تفتيش جبل الاولياء . ولعلك إن أردت أن تستوضح منه صورة موفق الى ذلك اذا كنت قد رأيت بعض دواوين الهندسـة في مراكز مصر أو بعضاً من مباني المحاكم الجزئية في هذه المراكز

دخلنا التفتيش وجاء الموظفون فاذا بي في وسط مصري خالص. واذا أحد هؤلاء الموظفين كاتب كثيراً ما ظهر اسمه على صفحات

الجرائد المصرية على مقالات في التفكير والاجتماع ، ثم رأى جبل الاولياء ووزارة الأشغال اكثر فائدة وجدوى من صناعة القلم .وجعل صبري بك ينظر في أوراق التفتيش زمناً . ولما أردت أن أقف على بعض معلومات خاصة بالخزان ذهب الى غرفة مجاورة ثم عاد يخبرني أن المهندس المقيم مستر تيبر (The Resident Engineer Mr. Tabor) يفضل أن نزور المباني التى تجاور الخزان وأن نشهد مكان الخزان وأن نرى الاستعداد للتشييد وما حوى هذا الاستعداد من تجارب هندسية كي أتمكن بعد ذلك من أن أطرح عليه ماأريد سؤاله عنه

وسرنا صوب النهر الى حيث تقرر بناء قنطرة الحجز مارين في طريقنا بسكك حديد ضيقة (ترولى) لنقل الاحجار والعمال، ثم انعطفنا فتسلقنا الى حيث كان يقام بناء جديد للتفتيش يشرف على النهر ويمكن للمقيم به أن يرى العمل اثناء سيره وأن يراقبه مراقبة دقيقة ، ولذلك سمي هذا البناء منزل الخزان . ومن عند هذا البناء تسلقنا من جديد قمة وضع فوقها حجر هو حجر المحور كما يسمونه ومنه يرى الانسان على شاطىء النهر حجرين على خط مستقيم معه هما موضع بداية البناء عند كل شاطيء . وعلى حجر المحور هذا اعتاد الزائرون أن يكتبوا اسماءهم . وعليه كتبت اسمي أنا أيضاً مثلما يكتبون .

وانحدرنا من عند حجر المحور الى بناء التفتيش الجديد فالى شاطىء النهر ونحن نتحدث عن هذا الخزان وبنائه ، فلما كنا عند



(مستعمرة جبل الاولياء)

الشاطىء لفت نظري حوض كبير في الارض بني من أحجار الجبل فسألت عما هو. فاذا السير موريس فتزموريس المهندس الانكليزي العظيم في شؤون العمارة كان قد استدعى الى هذه المنطقة ليبدي رأيه من الوجهة الفنية فيما اذا كانت احجار جبل الاولياء صالحة لاقامة

قناطر الحجز منها أو ان ضروريًا جلب احجار الجرانيت من ناحية مكوار أو ناحية أخرى أقرب منها . وقد بني هذا الحوض من حجر جبل الاولياء وملىء بالماء لمعرفة تأثير الماء فيــه ولتقدير قوة مقاومة القناطر التى تبنى منه . ومع أن هذا الحجر ثبتت قوته فقد ابدى الخبير الفني رأيه بأنه يفضل أن يبني القناطر من جرانيت وجد على مسافة أربعين كيلومترا من جبل الاولياء ويقتضى نقله نفقات غير قليلة. لكن النفقات يجب أن لا يقام لها حساب كبير عند اقامة أعمال هندسية لها صفة الدوام كقناطر الحجز المعدة لخزن مليارات الامتار المكعبة من المياه ذات الضغط الشديد .

واستدرنا عند هذا الحوض الى ناحية صهريج ماء مرتفع واقع عند شاطىء النهر اعد لتغذية بعض اعمال البناء والهندسة القائمة هناك. والى جانب هذا الصهريج امتد في وسط النهر جسر ضيق لا يتسع لا كثر من شخص واحد يسير عليــه ويصل بين الشاطىء وورشة عوامة سمعنا منها اصوات المطارق التي كانت تعمل لاتمام معدات الباخرة كسلا الواقفة الى جانبها . فوقفت بعــد خطوات من الجسر هنيهة واجلت البصر فيما حولي .أين أنا الآن ؟ . . . هذا هو النيل امامي اراه كما أراه في دمياط وفي المنصورة وفي القاهرة وفي اسيوط وفي اسوان. وهذه شمس الشتاء الدافئة فوقى تبعث من خلال السماء الصافية البديعة الصفاء اشعتها المحسنة التى تتعاون مع الماء لبعث الحياة

في انحاء الوجود . وهذه هي الباخرة كسلا يقوم بالعمل لاعدادها جماعة من اخواني المصريين . وهذه الاراضي المتسعة حولي اشبه في طبيعتها السهلة رغم قيام جبل الاولياء فيها بطبيعة الوادي من مصر الى حلفا والى الخرطوم تقوم فوق اراضيه المنبسطة جبال لا تزيد على جبل الاولياء ارتفاعاً ، وهاهم السودانيون الذين خلفت بالخرطوم يتكلمون باللغة التي اتكلم بها ويدينون مثلي بالاسلام ويتصلون كما اتصل بماض مجيد يعرف الفراعنة ويعرف الرومان ويعرف العرب . الست اذن في بيئتي الطبيعية ؟ اليس هذا الصمت المحيط بي يوحي الي من العواطف والمعاني بما يوحي بهِ صمت ارياف مصر : أوليس ذلك حجة على أن النيل المحسن أب لكل من اقام على ضفافه الفياضة بالخصب والخير والبركة ، فكل من اقاموا على هذه الضفاف إخوان يجب أن ينعموا احرارا بخيرات أبيهم العظيم

وسرنا فوق الجسر الى الورشة العوامة وارتقينا فوق سطح الباخرة كسلا . وكسلا احدى بواخر وزارة الاشغال التي تقل المهندسين ومفتشي الري المصريين ما بين الخرطوم والملاكال وأعالي النيل الابيض وكانت في هذا الحوض تجدد غرفها وسطوحها وتعد لراحة المسافرين عليها راحة كاملة . والشيء الذي تمتاز به هذه البواخر الصغيرة التي تسير في اعالي النيل غرفة كبيرة من السلك يقيم بها المسافرون لتقيهم فعل ناموس الملاريا بهم . والمسافرون يلجأون في الشتاء الى

هذه الغرفة نهارهم ويأوون الى الغرف العادية ساعات الليل . أما في الصيف فالغرف العادية لا تحتمل ليلا ولا نهاراً . عند ذلك تصبح غرفة السلك هذه هي المأوى وهي الملجأ اليوم كله

وعدنا من حيث أتينا وغادرنا وراءنا كسلا والورشة العوامة وصهريج الماء والحوض الذي بني من الحجر وارتقينا الشاطىء حتى وصلنا الى ورشة كبيرة سورت بحوائط من الصاج وقام بالعمل على وابوراتها جماعة من المصريين . وهذه الورشة مستعدة لكل ما يحتاج الأمر اليه في أعمال التشييد والبناء

ورجعنا الى تفتيش الري وقابلت مستر تيبر المهندس المقيم الذي أبدى لي ، بعد تبادل التحية ، تمام استعداده لاجابتي عن كل ما أريد أن أسأل عنه من شؤون الخزان الفنية . قال : « أما الاعتبارات السياسية فليست من شأني ولذلك لا جواب لها عندي »

وقبل أن نبدأ الحديث أطلعني على خريطة الخزان الذي يمتد -بعد تمام بنائه -من جبل الأولياء الى الدويم . ولما كانت هذه المنطقة تبدو للنظر رملية وكان تسرب المياه أثناء الرمال مما يسهل تصوره كان أول ما سألت المهندس المقيم عنه اذا لم يكن الخزان في هذه المنطقة من وادي النيل مضيعاً لكميات كبيرة من المياه خصوصاً وأن ارتفاعها في النهر مدة التخزين يجعل ضغطها على الرمال أكبر . ومن شأن ذلك أن يزيد كمية المتسرب خلال الرمال؟

فكان جوابه :

«لقد ورد مثل هذا الخاطر بنفس الذين فحصوا هذه الارض قبل البت ببناء الخزان عليها ، فقاموا باجراء تجارب اقنعتهم بأن الارض صماء لاتتسرب المياه خلالها اكثر مما تتسرب خلال أية منطقة جبلية . وما نزال نحن موالين اجراء مثل هذه التجارب . وكل ما تقوم به منها يزيدنا اقتناعاً بصلاح المنطقة للخزن . من هذه التجارب انا حفرنا آبارا كثيرة على شاطىء النهر ما بين جبل الأولياء والدويم وتركنا هذه الآبار أزمانا طويلة . وقد لوحظ أن هذه الآبار لا تتأثر بالفيضان ولا بالتحاريق . فارتفاع المـاء فيها وغيضانه منها لا علاقة له البتة بارتفاع النيل وانخفاضه . وهذا دليل على أن تسرب الماء في هذه الارض ليس يسيراً كما قد يبدو للنظرة الأولى . وزادنا اقتناعاً بصلابة الارض وعدم قابليتها للتسرب أن المياه في هذه الآبار لم تكن ترتفع وتنخفض وتغيض بنسبة واحدة ولا في أوقات واحدة. فمن هذه الآبار ما كان يرتفع ماؤه اكثر من غيره ومنها ما كان يغيض فيه الماء بينا ما يزال غيره يرتفع الماء فيه . وفضلا عن ذلك كله فان ارتفاع المياه في هذه الآبار لم يصل يوماً من الأيام الى محاذاة ماء النهر ولم يزد يوماً على ان كان ماء نشع كما يرى في أية منطقة غير منطقة جبـل الأولياء ، وكما يرى في بعض المناطق الجبلية الصخرية

«هذه واحدة من التجارب. وتجربة أخرى اننا وضعنا اسطوانة

نحاسية ارتفاعها خمسة أمتار عمودية على هذه الرمال وملأناها بالماء. وتركناها أياما طويلة فلم ينقص الماء فيها أي نقص مما يدل على أن الرمال لم تتشرب منه شيئاً.

« واكثر من خمسين تجربة من هذا النوع أجريناها وكلها دلت على أن أرض هذه المنطقة صماء وان التخزين بها لا يخشى معه من تسرب الماء خلال الأرض ولا من تشرب الارض للماء. فاذا لوحظ الى جانب ذلك كله أن مقدرة الأرض على التشرب تنتهي كما تنتهي مقدرة الماء على اذابة أي مادة قابلة للذوبان — كالسكر وكالملح — تلق فيه، وان فيضان النيل في هذه المناطق يرجع الى آلاف السنين لم يبق أمامنا موضع للريبة في أن نظرية التسرب نظرية لا أساس لها»

لم أجد ما اعترض به على هذه الأقوال. ولاحظ ذلك مستر تيبر. فانتقل من مسألة التسرب الى الحديث عن جبل الاولياء ووظيفته الحقيقية فقال:

« تعلم ان مصر بحاجة الى أربعة عشر ملياراً من الامتار المكعبة من الماء لامكان ري كلما يمكن ريه من أراضيها القابلة للزراعة. وخزان اسوان الحالي لا يحجز اكثر من مليارين ونصف مليار. وخزان جبل الاولياء لن يقوم بحجز كمية اكثر مما يحجز خزان اصوان. ولا سبيل الى الحصول على التسعة المليارات الباقية لسداد حاجات مصر المائية في مستقبل غير بعيد الا التخزين على البحيرات

الاستوائية التي ينبع منها النيل الابيض . وهذه هي مشروعات الري الكبرى التي يفكر فيها منذ زمان طويل – من أيام كان السير ويليام جارستن مستشاراً لوزارة الاشغال المصرية . والمياه المخزونة في المناطق الاستوائية لا تصل الى مصر قبل ثلاثة أشهر أو ثلاثة أشهر ونصف . فلا مفر والحالة هذه من وجود حوض منظم تحجز عنده كميات من المياه كافية للحاجات العاجلة ويمكن ان تصل الى مصر في اسبوعين أو ثلاثة أسابيع ذلك بأنه اذا طلبت اصوان الماء اللازم لمصر من بحيرة البرت التي سيكون عليها الحجز العام فمن الواجب أن يطلب هذا الماء للحاجات التى تنتظر في مصر بعد ثلاثة أشهر أو اربعة . وقد يكون من الصعب التنبؤ بما سيكون من هذه الحاجات . ففي اثناء ثلاثة اشهر أو أربعة قد ينزل من الامطار في مناطق الحبشة أو في مناطق اخرى ما يغني مصر عن هذه المياه . وفي هذه الحالة – حالة ما اذا لم يكن هناك حوض منظم وكانت المياه تسيل من البرت لاصوان مباشرة – يضطر رجال الري الى ترك هذه المياه تمر للبحر الأبيض المتوسط وتضيع فيه . والغاية من اقامة قناطر الحجز انما هي التفادي من ترك الماء يضيع واستبقائه للانتفاع به عند الحاجة . فأما مع وجود خزان جبل الاولياء ، وملئه كلما سحبت مصر المياه التي به ، والحجز بعد أن يمتلىء على بحيرة البرت فثم ما يكفل عدم طلب مصر الا ما تتوقعه من حاجاتها الى الماء بعد الاسبوعين أو الثلاثة

الاسابيع الكافية لمسيرة الماء من جبل الاولياء الى اصوان . وتعرُّف حاجات البلاد المائية بعد خمسة عشر يوماً أيسر كثيراً من تعرفها بعد ثلاثة أشهر أو أربعة . ففرص ضياع الماء في البحر الابيض المتوسط تكون في هذه الحالة أقل بكثير . وهذه هي الوظيفة الحقيقية الدائمة لخزان جبل الاولياء . هو حوض منظم اكثر منه خزاناً . لكنه سيكون خزاناً الى أن يتم تعديل مجرى النيل في منطقة السدود وإقامة الحجز على بحيرة البرت .

وطال الحديث بنا في هذه الشؤون ثم شكرت المستر تيبر وخرجت وأصحابنا المهندسين المصريين الى حيث تناولنا طعام الغذاء في دار أحدهم بجبل الاولياء . وتركنا هذه المستعمرة المصرية التي لا تظهر أمام العين اكثر من مستعمرة صغيرة تكفي خمسون الفاً أو مائة الف من الجنيهات لانشائها والتي يقال مع ذلك انها استغرقت ثمانمائة الف من الجنيهات ، تركناها عائدين الى الخرطوم حيث وصلناها ساعة آذنت الشمس بالمغيب .

* * *

آويت الى الفندق ورأسي مشغول بمشروعات الري الكبرى، هذه المشروعات التي لم تشغل بال المصريين مثلما شغلته منذ سنة ١٩٢٠ حين كانت حركة مصر الاستقلالية على أشدها وحين داخل الناس الروع على مصيرهم اذا ظلت مفاتيح النيل في يد غير يد

مصر . فلقد علت الصيحة يومئذ بأن مصر كانت منذ الأزل متمتعة وحدها بمياه النيل وبطميه المخصب ، فمن الغبن ومن الاعتداء على الحقوق حجز هذا الماء أو بعضه عنها لزراعة القطن أو غير القطن في السودان ، ومن الغبن وضع تصرف النيل الذي كان دائماً بيد المصريين في أيد اخرى تستطيع ان تتخذ من ذلك وسيلة لتهديد مصر في حياتها وعيشها لسبب ولغير سبب . لكن هذه الصيحة كانت متأخرة من ناحية ، وكانت متهمة بالغرض الذاتي من ناحية اخرى ، وكانت سياسة سيئة كذلك .

ومع أن المصريين جميعاً اشتركوا فيها اندفاعاً وراء المهندسين الذين قاموا بها وفي مقدمتهم السير ويلم ولككس والمستر كندي الانكليزيين فانني اشعر اليوم شعوراً عميقاً بأنها لم تكن صيحة موفقة بحال من الأحوال . كانت متأخرة لأن مشروعات الري التي قامت الصيحة ضدها لم تكن بنت الحرب بل الحرب كانت عطلتها . ولم يبدأ بحثها وتصميمها قبل الحرب مباشرة بل بحثت ووضع تصميمها وقررت المبالغ اللازمة لانشائها قبل الحرب بسنوات . مع ذلك لم يعترض عليها أحد ولم ينكر أحد ما أفادت مصر من انشاء خزان القناطر الخيرية ومن انشاء خزان أصوان وتعليته كما لم ينكر أحد حاجة مصر للماء اذا أريد التوسع في رى المساحات القابلة للزراعة فيها .

فالمبدأ من حيث هو تقرر قبل الحرب بنحو خمس عشرة سنة. وطريقة التنفيذ وضعت في سنة ١٩٠٩ وبدأت أعمالها التمهيدية في سنة ١٩١٣ وكان هؤلاء المهندسون الذين أقاموا الضجة في مصر يشغلون وظائف هندسية كبيرة. ومع ذلك ظلوا جميعاً لا يرفع أحد منهم صوتاً. وكانت هذه الصيحة متهمة بالغرض الذاتي لأن سير ولككس ومستر كندي لم يعترضا كما تقدم الا حين نشاط الحركة الاستقلالية المصرية. وبعدما استقل السير مردخ مكدونالد بالاشراف في انكلترا على مشروع الجزيرة من غير أن يشتركا واياه فيه مع ما كان لهما من المقام في الاعمال الهندسية بمصر والسودان. وكانت الصيحة سياسة سيئة لأنها اتخذت حجة عند السودانيين بأن المصريين يريدون الاستئثار بخيرات النيل وحدهم مع ما يعلنون من أنهم يعتبرون السودان ومصر قطراً واحداً ويفضلون أن تهدر مياه النيل في البحر الأبيض المتوسط على أن ينتفع بها غيرهم، ولو كان هذا الانتفاع غير ضار بالمصريين أنفسهم، اذا قام المصريون وقام السودانيون ببناء القناطر اللازمة التي تحجز الماء للانتفاع به بدل تركه يسيل الى البحر الأبيض المتوسط

أشعر اليوم شعوراً عميقاً بأن هذه الصيحة لم تكن موفقة. صحيح أن أولوية مصر في الانتفاع بمياه النيل أولوية تاريخية ثابتة لا سبيل الى انكارها. لكنها لا تؤدي الى اكثر من حق مصر في استيفاء

حاجاتها من ماء النيل قبل غيرها . وما دامت المياه التي تفيض من النيلين الازرق والأبيض يمكن حجزها والانتفاع بها لتوسع مصر الزراعي ولزراعة السودان والبلاد الواقعة على شواطىء النيل فمن الجريمة في حق مصر وفي حق هذه البلاد المجاورة لها والمتصلة بها ، وفي حق العلم وفي حق الانسانية ، أن لا تضبط هذه المياه أدق الضبط وأن لا تستفيد منها مصر فالسودان وغير السودان الفائدة التي تجعل أراضيها تنتج أغزر نتيجة ممكنة والتي تفيد الصناعة وغير الصناعة من القوى الكمينة في انحدار مياه النيل مما تستطيع الوسائل العلمية استخلاصه منها .

ومياه النيل اذا ضبطت ليست كافية لري القابل للزراعة من أرض مصر والسودان وغير السودان فحسب ، بل لتجعل من كثير من الأراضي الأخرى الصحراوية واحات وجنات . وما دام العلم قد سخر للناس قوى الطبيعة فمن الجهل ومن السخافة أن لا يستغلوا كل ما يستطيعون استغلاله من هذه القوى

ولست أريد في سبيل التدليل على هذا ان أضل والقارىء في بيداء الارقام والمكعبات . فلست مهندساً واكثر القراء ليسوا مهندسين . ويكفيني أن أذكر ان حاجات مصر الحالية للماء المخزون تعادل مليارين ونصف مليار من الامتار المكعبة . وحاجة السودان الحالية تعادل ٨٠٠ مليون متر مكعب من الماء المخزون كذلك . أما مياه

الفيضان فلا حساب لها لأنها تزيد أضعافاً مضاعفة عن حاجات مصر والسودان أثناء الفيضان . فاذا كان ممكناً أن يحجز فضلاً عن ذلك ثلاثة مليارات ونصف في بحيرة تسانا ومليارات ونصف عند جبل الأولياء (أو عند اسوان اذا امكنت تعلية الخزان وملؤه) وأربع وعشرون ملياراً في بحيرة البرت امكن القارىء أن يتصور ما يمكن زيادته من المساحات المنزرعة في مصر والسودان . وعند ذلك يشعر معنا بعدم توفيق تلك الصيحة التى اندفع الناس لها وراء انتقادات السير ولككس ومستر كندي والتي كانت ترمى الى غرض آخر

صحيح ان تفاصيل الانتفاع بهذه المياه وكفالة ما لمصر في ذلك من أولوية يحتاج الى دقة فنية كبيرة . وان من حق المصريين المعترف لهم بهذه الاولوية أن يراقبوا تصرف مياه النيل منذ صدورها من منابعه . وقد كان ذلك متبعاً الى آخر الحرب إذ كانت وزارة الاشغال المصرية قائمة بهذه المراقبة فعلاً . لكن الأحداث السياسية التي جدت بين مصر وانكلترا بعد الحرب بسبب مطالبة المصريين بحقهم الطبيعي في الاستقلال وحرصهم على وحدة مصر والسودان في هذا المطلب أدت مع الأسف الى منازعة إنكلترا مصر هذه المراقبة المترتبة حتماً على اولويتها في الانتفاع بمياه النيل . وبلغ النزاع أشده على أثر مقتل السير لي ستاك باشا حاكم السودان العام بالقاهرة . فقد ذهبت إنكلترا في انذارها الذي وجهته للحكومة المصرية بتاريخ

٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ على أثر هـذا الحادث الى انكار أولوية مصر التاريخية والى أن أيدت حكومة السودان في إباحة زراعة ما تريد زراعتـه في سهل الجزيرة من غير حاجة الى أن يتم بين هـذه الحكومة وحكومة مصر اتفاق سابق على هذه الزيادة ، ومن غير تقدير لما يترتب على هذه الزيادة من الضرر بأولوية مصر التاريخية في الانتفاع بماء النهر . فلما هدأت الاحوال نوعاً وآن للتفكير السليم أن يحل محل العجلة التي اندفعت اليهـا انكلترا في تقرير سياستها بمصر على أثر الحادث عدلت عن هذه الفقرة من إنذارها ، وقررت أولوية مصر في الارتفاق على مياه النيل في وثيقة رسميـة ، واتفقت على ان تحدد لجنـة المساحة التي يمكن زيادتهـا على الثلاثمائة الف فدان المنزرعة قطناً وأن تبحث كذلك مبلغ حاجات مصر لمياه النيل الازرق ومتى يجب أن يكون تصرف هذا النهر كله وقفاً على مصر فلا يكون للجزيرة الا ما حجز من الماء في خزان سنار

وقد قامت هذه اللجنة بالمباحث التي كلفت القيام بها . ومع ان تقريرها لم يعلن حتى ساعة كتابة هذه السطور (دسمبر سنة ١٩٢٦) فالمفهوم ان الاتفاق تم على أن تزاد مساحة مشروع الجزيرة الى أربعمائة وخمسين الف فدان بدل ثلاثمائة الف . والحجة في ذلك أن خزان سنار يكفي متى ملىء لري نصف مليون من الافدنة وان ملأه لا يضر بحاجات مصر للماء ، فلا ضرر إذن من زيادة المساحة مائة

وخمسين الف فدان أخرى . والمفهوم كذلك أن قد تقرر أن بدأ حاجات مصر لتصرف النيل الازرق كله يقع في أول يناير في السنين العادية وفي ١٨ دسمبر في السنين الواطئة الفيضان . وعلى ذلك يجب البدء بتفريغ خزان سنار في هذه التواريخ بدلا من ١٨ يناير وهو التاريخ الذي أشار اليه الفي بك في المذكرة التى أثبتنا صورتها في الفصل السابق

وقد اعترف لمصر في هذا التقرير بحقها في مراقبة تصرف النهر كما اعترف لها بمراقبة تصرف خزان سنار . لكن تفاصيل الوسائل التى تتم بها هذه المراقبة لم تعرف بعد. وهي لا تعني فيما أعتقد غير المهندسين

والمفهوم ان هذا التقرير وضع المبادىء المشار اليها بصفة مؤقتة يعاد النظر فيها عند تمام انشاء خزان جبل الاولياء وضبط المياه التى تستطيع مصر أن تستفيدها منه . ذلك بأن إنشاء خزان جبل الاولياء كان أمراً مقرراً يوم وضع هذا التقرير ولم يكن يدور في حساب أحد أن توقف الاعمال فيه لاعادة النظر في صلاحه أم في أفضلية تعلية بناء خزان اصوان على إنشائه . لكن الحكومة التى عقبت حكومة زيور باشا (وهي حكومة عدلي باشا ووزير الاشغال فيها عثمان بك محرم) قررت وقف العمل في جبل الاولياء وانتداب لجنة دولية للبت أي الاثنين أفضل: انشاء الخزان المذكور أم تعلية خزان اسوان . والى ساعة كتابة هذه السطور أيضاً لم تحضر اللجنة الدولية التي قررت

الحكومة انتدابها منذ ستة شهور ، بل لم تدع هذه اللجنة للحضور ، بل لم تجمع المعلومات والبيانات التى تمكن اللجنة من الفصل فيما يراد منها أن تفصل فيه

ولست فنياً في شؤون الهندسة والري لاقطع في الامر برأي . وهذا الموضوع لا يدخل في نطاق كتاب وضع عن عشرة أيام قضيتها في السودان . لكن ما أخذت به نفسي في مقدمة الكتاب من أن أوجه حظا كبيراً من همي ومن عنايتى الى هذه المسألة الخطيرة التى لم تنج في مصر كما لم تنج في السودان من شوائب الشهوات السياسية، والتى ما تزال سبباً لنشر دعوة تثير بين المصريين والسودانيين العداوة والبغضاء – يجعلني أخشى أن يكون الخلاف في مسألة اسوان وجبل الاولياء مشوباً بهذه الشهوات السياسية بينما كان واجباً أن يظل في دائرة البحث الفني الصرف وأن يترتب عليه ما ترتب على الصيحة العامة التى قامت في سنة ١٩٢٠ بزعامة السير وايم ولككس والمستر كندي والتي اتهمت بما اتهمت به . وأخشى أن يكون خلاف اليوم غير موفق كما كانت تلك الصيحة غير موفقة .

والرأي عندي أن مشروعات الري التى تقام على نهر محسن كبير كالنيل ليست معاقل سياسية يرجى من ورائها اخضاع شعب من الشعوب ولكنها تحوير في الطبيعة يتمه العلم لفائدة الانسانية . وليست مصر وليست السودان وحدهما هما اللذان يستفيدان من هذه

المشروعات، بل تستفيدمنها الانسانية جمعاء فائدة اقتصادية عظيمة .وما دام صحيحاً، اقتصادياً، ان كل زيادة في الانتاج الزراعي او المعدني أو الصناعي تحدث في ناحية من الأرض تفيد الانسانية جمعاء فمن الجريمة أن تستغل أسباب هذه الزيادة لشهوات سياسية وسيان كانت هذه الشهوات في أمر مشروعات الري على النيل ناجمة عن مطامع انكلترا أوعن مخاوف مصر. وأمام المصريين مثل في قناة السويس وموعظة. لقد حورت هذه القناة الطبيعة لمصلحة تجارة العالم كافة فزادت بذلك رخاء الناس طراً. وبالرغم مما أثارته من الشهوات والمطامع السياسية التي أضرت بمصر فقد أفادت مصر من القناة فائدة مادية وفائدة معنوية كبرى. واذا كانت لم تفد كل ما كانت تستطيع إفادته فليس الذنب في ذلك على هذا التحوير الصالح للطبيعة، بل الذنب على الظروف الخاصة التى أحاطت بالاجيال الحاضرة والتى نبهتها لتمهيد السبيل لسعادة الاجيال المستقبلة

ومشروعات الري الكبرى تحوير للطبيعة من هذا النوع. فالطبيعة تجعل مياه النيل تنحدر بها الامطار في فصل معين من السنة فتنساب في مجراه لتضيع في البحر الابيض المتوسط. واذا امكن ضبطها للاستعانة بها في استغلال الاراضي القابلة للزراعة، وعلى زرع الانواع المختلفة في فصول السنة المختلفة، كان ذلك خيراً لمصر وللسودان وللناس جميعاً في أقطار الارض المختلفة. وقد عولج ضبط

هذه المياه منذ قدماء المصريين وعولج في القرن الأخير بنجاح . فمن الجريمة عدم ضبطها اليوم ولدينا من وسائل العلم ما يمكننا من ذلك

واذا كان واجباً أن يعلن أمثالي من غير المهندسين هذا الرأى بمثل هذه الصراحة فواجب المهندسين الذين يحترمون أنفسهم ويريدون أن يسخروا علمهم لمنفعة وطنهم وخدمة الانسانية أن يعلنوا آراءهم الفنية في هذا الموضوع وفي كل موضوع يعتقدون صلاحه وفائدته . وليس يجدر بهم بحال من الاحوال أن يخلطوا اعتبارات السياسة باعتبارات الفن . فاعتبارات السياسة وقتية واعتبارات الفن دائمة . والسياسة ظروف تنتهز ولكن العلم والفن مبادىء وقواعد تقرر . وقد يبدو لك أمر من الامور السياسية اليوم في لون فاذا هو بعد زمن قصير في لون آخر . وقد تحسبك مستطيعاً أن تحكم تصريفه سياسياً فاذا تقديرك انقلب عليك غداً واضطررت الى البحث عن تصريف لذلك الامر جديد . ومثل هذه الشؤون الدائمة المور مع الحياة لا يصح لعالم يبحث مسألة من المسائل المتعلق بها علمه أن يدخلها فى حسابه . إنما عليه أن يقول في طمأنينة ضمير وطهارة ذمة ما يعتقد حقاً عليه لعلمه وحده أن يقوله . ويجب عليه لذلك أن ينسى ساعة ابدائه الرأى أنه ابن أمة ضعيفة وأن ينظر في الأمر لذاته لا للظرف السياسي المؤقت المحيط به

ولعل هذه النظرة العالية المتجردة عن العاطفة السياسية أهون

على المصريين في مشروعات الري الكبرى منها في اية مشروعات أخرى . فالسودان ومصر وطن واحد فى الحقيقة . وأهل اصوان أقرب الى حلفا منهم الى القاهرة .والروابط التي تربط مصر والسودان كثيرة وثيقة ان ضعضعتها أحداث السياسة يوماً فلن تفضها . ثم هي لن تضعضعها الا الى أجل . وذلك الاعتبار أصح اليوم منه فى كل يوم مضى . فالامم فى الغرب والشرق تتقرب بعضها من البعض الآخر ولو كانت بينها فواصل طبيعية وليس بينها من الصلة ما بين مصر والسودان .وكلما ازدادت وسائل المواصلات تهدمت الحدود الصناعية بل الحدود الطبيعية.واذا كانت الامم تسعى اليوم للقضاء على الحواجز الجمركية التي أدت كثرتها الى ما يعانيه العالم منذ الحرب الكبرى من أزمات اقتصادية فمعنى ذلك أن ما أقيم فى الماضي من الحواجز الصناعية سيتهدم بطبعه

ولسنا الآن بمعرض بحث هذه العلاقة بين مصر والسودان فسنفرد لها الفصل الاخير من هذا الكتاب . لكننا نورد ما أوردنا لنقول أنه اذا وجب على رجال العلم أن يطرحوا جانباً اعتبارات السياسة فى أبحاثهم فذلك أوجب فى بحث مشروعات الري الكبرى بين مصر والسودان

عشية الأوبة

يوم بحلفا وبشلال حلفا

عدت من جبل الأولياء مساء السبت ٢٣ يناير وقد اعتزمت السفر بالقطار الخاص الذي يبرح الخرطوم صباح الغد قاصداً حلفا . وكان في نيتي أن أتناول طعام العشاء ثم أحزم متاعي وآوي الى مضجعي لاستريح من عناء هذه الأيام التي قضيناها بالسودان في مثل نظام الجند حلا وترحالا . لكن عزمي لم يتحقق أن الفيت جماعة من أصحابنا الذين دعونا الى الشاي بالمكتبة القبطية أمس في بهو الفندق ومعهم بعض اخواننا المصريين الذين جعلوا من مقامنا بالخرطوم مقاماً بين أهل وأصدقاء . فأمضينا شطراً من الليل تناول حديثنا فيه شتى من شؤون السودان وعادات السودانيين والمجهودات التي تقوم بها حكومة السودان في سبيل تعميره ليكون مزرعة من أبدع مزارع القطن في العالم . وأهل السودان قسمان : عرب وزنوج . فأما العرب فيمتازون بدقة في قسمات الوجه وبرقة الشفاه وارتفاع قصبة الأنف . وهم ينقسمون أفخاذاً وعشائر كشعوب شبه الجزيرة . أما الزنوج ففطس الانوف غلاظ الشفاه غائرو الاعين . وهم يقيمون أغلب الأمر في داخلية السودان تحت أمرة سلطان منهم ما تزال نفسيته نفسيتهم

وروحه روحهم . و برغم امتداد الحضارة الى الخرطوم والى أم درمان عن طريق أهل الجنسيات المختلفة الذين يقيمون بهما وعن طريق المصريين بنوع خاص إذ يمتون الى العرب السودانيين بكثير من الصلات بينها الدين واللغة والمصاهرة والعادات ؛ فان داخلية السودان ما تزال في شبه الحياة الوحشية التي يقصون مثل قصصها عمن عاشوا في مجاهل الأرض منذ آلاف السنين . قص أحد الذين حضروا معنا في هذه الأمسية أنه كان مسافراً الى رجاف في المنطقة الاستوائية ، فمر بأحد السلاطين الزنوج وطلب أن يحظي بالمثول في حضرة عظمته . ولما كان يعرف من أمر هذه البلاد شيئاً كثيراً لم يدهشه أن ظهر له هذا السلطان في هيئة لا تمتاز على هيئة « أبي الودع » الذي يطوف متسولا في قري الريف بمصر ، وظهر من وراء السلطان مائتان ، معلمة رماحهم ، وكلهم في خدمته . فلما حظي محدثنا بحضرة السلطان قدم الى عظمته من الهدايا بعض المرايا و بعض الورق المفضض الذي تلف به قطع الحلوي ، فكان اغتباط عظمته بهذه الهدايا عظيما . ولعله أمر لمن قدمها بشيء كثير من العاج ومن ريش النعام .

وقص محدثون آخرون شيئاً من مثل هـذا القصص فأذكرني ذلك جان جاك روسو ورجل الطبيعة الذي صوره في كثير من كتبه والذي جعله المثل الأعلى للسعادة وود معه أن تعود الانسانية الى احتذاء مثاله . وابتسمت لهذه الذكرى وتساءلت لو كان يرضي روسو

بمثل عيش هذا السلطان وجنوده . ثم سرعان ما زالت ابتسامتي حين سمعت المحدثين يذكرون من شهامة هؤلاء الزنوج و بسالتهم واحتقارهم الحياة وأقدامهم على الموت طائعين . زالت ابتسامتي وتخيلت روسو منتصراً يقول : « أرأيت يا صاح الى هؤلاء الذين كنت تحسبهم مثل الضعة والحقارة . أنهم سعداء لأن مطامع الحياة وشهواتها لم تكتسح من نفوسهم أسباب العظمة الحقة التي تصل الانسان بالطبيعة وتجعله جزءاً منها سعيداً بها مطمئناً اليها . وهم سعداء لأن العلوم والفنون لم تخدعهم بباطل زخرفها ولم تزين لهم من ألوان اللهو متاع الغرور . ثم هم سعداء لأنهم يعيشون عيش البساطة فكل ما ينالونه من خير يزيدهم سعادة . فلم لا تعيش الانسانية عيشهم فتطرح وراءها هذا الزخرف الباطل الذي تسميه الحقائق والعلوم والفنون والذي لا يزيد على أنه عبث الذهن ولهو الخيال ؟ »

وأمسكت عن الاندفاع في هذا التفكير حين اضطررت لمشاركة اخواننا لما تحدثوا عن مصر وأحوالها وسألوني عما اعتقده مصير ما تم بين أحزابها من ائتلاف . والحديث في السياسة كحديث الافاعي يطول . فاستغرق كلام اخواننا في مصر وشؤونها بقية سهرتنا ، ثم ودعوني واعتذر جماعة منهم بعملهم عن توديعي ساعة الرحيل من الخرطوم

وتنفس صبح الاحد ٢٤ يناير واعتلت شمسة سماء السودان الصافية الاديم وتناولت الشاي وأعددت متاعي وذهبت الى قاعة

الطعام للافطار ثم خرجت من بهو الفندق الى حديقته الصغرى التي تفصل بين سياج الفندق وبنائه . وألفيت عند الباب سيارة كبيرة وسيارات صغيرة بعثت بها حكومة السودان لتقلنا جماعة ضيوفها الى المحطة في طريق عودتنا الى مصر . وتخطيت الشارع وألقيت نظرة على صفحة النيل الأزرق وتلفت حولي أودع هذا المنظر الذى ألفته وألفني أسبوعاً كاملا . في هاته اللحظة دب الى نفسي احساس يخالجها كلما فارقت بلداً احتواني وأنا في شك من العودة اليه . احساس الفراق يمتزج فيه الألم بالأمل ، والخوف بالرجاء . وهل الفراق الا بعض صور الفناء والعدم والموت ! هل هو الا انهيار ما نفارق في لجة مالا نرى ومالا نحس الا خيالا وحدسا ، في هذه اللجة الفسيحة الممتدة الى اللانهاية والمحجوبة عنا بآفاق قريبة لا تزيد على مدى ما تصل اليه حواسنا . وهو انهيار مخوف في لجة الزمن الذى لا يذر العالم لحظة من غير مور ولا تجدد . ومن يدري ما تكون الخرطوم وأم درمان والسودان أن قدر لي أن أعود اليه بعد سنوات ؟ ! هل أجد هذه الاشياء التي ألفت والتى أصبحت جزءاً من حياتي كما خلفتها ؟ أم أرى مكانها شيئاً جديداً أسدل عليها ستار الفناء وقام مقامها ! والحق عندي أن كل ما نرى وكل ما نحس وكل عاطفة تهز فؤادنا وكل فكرة تجول بخواطرنا هي بعض حياتنا القصيرة التي تنقضي بعد أن تصبح هى الاخرى بعض حياة الوجود الأزلي الابدى . ولئن كان كل ما يصيب

المادة يترك فيها أثراً لا يزول — على حد قول هربرت سبنسر — فما أشك أنا في أن كل ما يصيب حياة الوجود يترك فيها أثراً لا يزول

دب الى نفسي الاحساس بالفراق حين رأيت السيارة الكبيرة التي أعدت لنقل المتاع والسيارات الأخرى التي أعدت ليستقلها المسافرون . ومن شأن الظروف التي تحيط بنا ساعة الفراق أن تجعل هذا الاحساس مبهما . فنحن ساعتئذ في شغل بمتاعنا وبالمسافرين معنا وبما ينتظرنا في سفرنا . وكنا جماعة المسافرين من الخرطوم أشد ما نكون شغلا . فهذا يبحث عن بعض ريش النعام يهديه أصدقاءه في مصر أو في غير مصر . وهذا قد نسي بعض ما ابتاع أمس في مخزن مقفل اليوم — يوم الاحد — ويريد أن يدبر الوسيلة للحصول على ما ابتاع . وهذا ثقل متاعه فما يدري كيف يحزمه . ورجال البوليس وسائقو السيارات يستعجلون المسافرين لينتهي واجبهم . وأخيراً سارت السيارات تخترق بنا طرق الخرطوم فازدادت نفوسنا احساساً بمعنى الفراق . ثم انطلق القطار في منتصف الساعة التاسعة يقطع الطريق التي قطعناها آتين من حلفا حتى بلغ عطمور أبي حمد بعد ما أرخى الليل سدوله . وبلغنا حلفا في منتصف الساعة العاشرة من صباح الغد . ونقل متاعنا من القطار الى الباخرة بريتانيا التي كان مقرراً أن تسافر في أوليات المساء . فلم يك بد من أن نمضي النهار بحلفا .

حلفا بلد صغير أشبه ببنادر المراكز فى مصر فليس فيه ما يستوقف النظر ، وحكومة السودان جد حريصة على أن لا يشعر ضيوفها بشيء من الملال . لذلك نظمت لهم سياحة صغيرة في الصباح الى معسكر حلفا كما نظمت لهم نزهة بعد تناول طعام الغداء على ظهر بريتانيا يزورون فيها شلال حلفا ويشهدون منه منظراً من أعجب مناظر الطبيعة وأكثرها جلالا ورهبة .

ومعسكر حلفا، والى جانبه بيت كتشنر ،يقع على نحو ثلاثة كيلو مترات من محطة وادي حلفا . لذلك ركبنا اليه قطاراً سار بنا حتى كنا حذاءه . وقد ركب معنا هذا القطار جماعة من الأمريكيين لم يكونو بالخرطوم ولكنهم جاءوا الى حلفا للنزهة بعد أن قضوا في فندق الشلال باسوان زمناً غير قليل استجبوا معه تغيير منظر اسوان. والامريكيون شعب جديد حقاً . فالامريكى لا يشعر بأنه مقيد بما يشعر أهل العالم القديم بأنهم مقيدون به من عادات ومن قواعد للسلوك في حركاتهم وفي تحياتهم وفى ملابسهم . ولقد لفتنا منظر شاب يسير في سراويل بيضاء وينتعل حذاء ثقيلا غاية الثقل ويرتدي فوق أكتافه جاكتة وصدرية عجيب شكلهما . ولم يكن الانكليز ممن معنا أقل منا دهشة لهذا المنظر ، وكان هذا الشاب يسيرمع سيدة نصف ورجل متقدم الى الكهولة . عرفت فيما بعد أنهما ابواه ، وأن هذا الكهل أستاذ باحدى الجامعات الامريكية . واتصل بيني وبين

هذه الامرة حديث طويل أبدى الشاب خلاله من العجب للانكليز والاور بيين ومحافظتهم مثل ما أبدوا من العجب لاستخفافه بالتقاليد . ومع هذا النقد المتبادل وصل السفر بين الجميع فجعل كل يفضي الى اصحابه بما رأى وكيف تأثر به .

معسكر حلفا فضاء واسع من الرمال لم يبق من آثاره الا قوس فخم لمحناه ساعة نزلنا من القطار ، وكان هذا الفضاء مضرب خيام فرق الجيش المصري التى جاءت مع مصطفى فهمي ومع كتشنر من بعده لفتح السودان .على أنا لم نقصد باديء الامر الى القوس ولا الى الفضاء الذي اصبح صامتا وكان من قبل معسكراً لرجال الحرب وعدته ، بل ذهبنا الى دار قيل انها محافظة أو ما يشبه المحافظة كل ابوابها موصدة وليس في عمارتها ما يلفت النظر . وانتقلنا من هـذه الدار الى دار أخرى كانت منزلا لكتشنر شعرنا أول ما دخلناها بابتهاج آثاره في نفوسنا ذلك الزرع الناضر والخضرة الباسمة القائمة أمام المنزل والممتدة الى شاطيء النيل . ولقد استوقفنا هذا المنظر الناعم وسط جفاف الصحراء حوله ، وأخذ بمجامع الفؤاد انفساح النهر وقيام كثبان الرمل وراءه متموجة بين صعود وهبوط كأنها بعض موجه حين الفيضان . وكان للشمس فوق هذا المنظر وفي ذلك اليوم من أيام الشتاء سنا يأخذ بالابصار . ثم ادرنا عيوننا الى ناحية هذا المنزل الذي شهد من

تدابير الحرب والسفك ما شهد والذي اصبح اليوم صامتا صمت مصطفى فهمي وكتشنر في حجب الغيب وإن كان على خلافهما ما يزال معرضاً لعبث الحياة ولتدابير الحرب والسفك : ثلاث غرف قيمتها ما تكنه من الذكرى لا جمال فيها الا جمال ماشهدته من بطولة واقدام . ألم يكن الذين اقاموا فيها قواد الجيش المصري الباسل الذي نفذ الخطط التي وضعت بشجاعة وجرأة سجلا له على التاريخ فخراً خالداً ! وعلى ظاهر جدران احدى الغرف نقش تذكاري للذين اقاموا فيها واحتملوا مع الجند ما احتملوا من مضض وتضحية . والى جانب اللوحة زير قديم من الفخار لعله في هشاشة بنائه أصلب على الحياة من أولئك الذين شربوا من مياهه ولم يبق لهم اليوم على الحياة غير الذكر . والزير لا يزال باقيا تمجده الانظار و يود اصحابها شربة من مياهه . وتعلقت الابصار بهذه الاثار وجاهد كل مصور يريد أن يأخذ منها رسما برغم معاكسة الشمس له . على أن الابصار لم تكن بالحديقة و بالنهر وبكثبان الرمل على شاطئه الثاني أقل ولعا . فكانت ما تكاد تستقر على البناء برهة حتى تعود لتجتلي من هذا المنظر البديع المتجدد على الزمان ما تجدد الزمان جماله الساحر وسحره الفتان .

وخرجنا الى فضاء المعسكر القديم والى القوس الباقي من آثاره . وذهب البعض بخيالهم الى ذلك التاريخ القريب حين كانت الجنود

الذاهبة من حلفا الى الخرطوم تقف في هذا المعسكر الى أن تتلقى الاوامر بالاندفاع في تيه العطمور لانشاء سكة الحديد أو لسحب السفن بين احجار الشلال . و بقي آخرون سعداء بالجو الجميل حولهم و بالصور التي كان يأخذها المصورون لجماعتهم . وكان وقت الظهيرة قد اقترب فعدنا أدراجنا الى القطار الذي عاد بنا الى محطة حلفا حيث نزلنا عائدين الى بريتانيا .

ونلنا من الراحة ما نلنا ثم انتقلنا بعد تناول طعام الغذاء الى سفينة أخرى سارت بنا جنوباً نحو ساعة . فلما بعدنا عن حلفا ببضعة كيلو مترات تبدت أمامنا مقدمات الشلال ، فانتشرت في لجة النهر آكام صخرية من الجرانيت الاسود كانت مبعثرة بادىء الامر فالماء من خلالها فرضات ينفذ منها . لكنها كانت يقترب بعضها من بعض كلما اقتربنا نحن منها حتى تلاحمت أو كادت وحتى لم يبق للماء أمام العين الا مسارب تقف عند نتوء صخري قريب . وملأت آكام الجرانيت ما بين الشاطئين وترامت الى مرمى النظر والى غاية الافق متموجة في لونها الداكن كأنها ظهور قطيع ضخم من الفيلة ما تكاد تتحرك أو تتلوى الا بمقدار عبث الضوء بها وانعكاسه عنها . وامتدت بين هذا القطيع من الجرانيت أبصار تلتمس التماسيح التي خرجت الى

رمال الشاطيء تنال دفء شمس الشتاء المحسنة . قال الامريكى ذو السراويل البيضاء :

— لقد جئنا أمس الى هنا ورأينا من التماسيح قطيعاً كبيراً تمدد كل واحد من أفراده على الرمل وفغرفاه الى الشمس يشتشفى بأشعتها من علل الشتاء

ونزلنا من السفين الكبير الذي اقلنا من حلفا الى زورق أوتوموبيل ليتسرب بنافي تعاريج القنوات التي بين الصخور ،والتي لا تتسع لزورق اكبر منه، كي نصل الى قمة عالية هناك يحيط الناظر منها بالشلال كله . وفي لجة نور الشمس الساطعة سري بنا الزورق وكأنا في لجة ليل بهيم . فانت بين اكمتين سوداوين وأمامك على أمتار اكمة سوداء ثالثة تكاد تتصل بهما وتقطع الطريق أو يرتطم الساري . وتلتمس مسارب الماء بين ما تمر به من آكام الجرانيت فيرتد بصرك ولم يفدك شيئاً . ثم اذا الزورق انحرف فجأة ليحاذي الاكمة القاطعة عليه طريقه فما يكاد يحاذيها حتى تنجم أمامه اكمة جديدة يتلوى من حولها كتلوي الثعبان في مسارب الأرض . ولم تمض دقائق فاذا بنا في غابة كثيفة من صخر رهيب مخوف . لكن روح الجماعة في طبعها المرح مالم يلجمها الوجل أو يستثرها الغضب . لذلك ظل أصحابنا تلتمس أعينهم التماسيح التي قص عليهم الشاب الامريكي أمرها . فاذا خدع أحدهم

بصره وخيل اليه أنه رأى تمساحاً ثم تبين أن لا تمساح الا في خياله تبودلت النكات من جوانب الزورق عن ضخامة الحيوان الموهوم وعن ذنبه الذي كاد يلقي بنا في النهر وعن فكه المرتفع ليبتلعنا . ولم يكن مخدوع البصر أقل نصيباً في النكات من غيره . ومالنا لا نمرح ومعنا الدليل الذي قص علينا أنه يتسرب بقارب به في هذه اللجة عشرات المرات في كل شهر ومعنا النوبيون من أهل هذه النواحي يفخرون بأنهم يعرفون مسارب الشلال اكثر من معرفتهم أزقة قراهم . ثم مالنا لانجد في هذا المنظر الرهيب موضعاً لمسرة وبيننا سيدات وفتيات في شبابهن المتورد الوجنات ما يضيء الحلك ويبدد الظلم وهن برهبة هذا المنظر معجبات بل مفتونات

وطال بنا تسرب الزورق وتلويه من غير أن نحظى بتمساح واحد من سرب صاحبنا الأمريكي حتى انتهينا الى الشاطيء عند أسفل القمة العاليـة . وأسرعنا جميعاً لتسلقها ، وما كدنا نبلغ منتصفها حتى شعر كثيرون بالتعب . فالقمة رمليـة تغوص فيها الاقدام غوصاً وتحتاج من أجل ذلك الى مجهودين : تخليص القدم من الرمل ، ثم التسلق للغوص به في الرمل من جديد . لكن الشباب لا يعرف المشقة ولا يعجزه التعب . والطفولة لا تشعر بتعب ولا بمشقة . لذلك أسرع الاولاد والبنات وأسرع الشباب والشابات الى رأس القمة . وفي النفس الانسانية وان شق عليها الجهد غريزة المنافسة وحب الفوز .

وكم كان عجباً منظر شيوخ وعجائز هدهم التعب وأضناهم الكلال ثم لا يريدون أن ينظر اليهم الجيل الذي بعدهم وكأنهم أضعف منه حولا أو أقل حيلة. انظر الى هذه العجوز البادنة المترهلة البيضاء الشعر كيف تلهث! لكنها مع ذلك تستعين بنوبي يصل بها غاية القمة لتكون مع أبنائها وحفدتها بما يخيل اليها أنها تملك الحياة ملكهم وتستمتع بها استمتاعهم. وهي كلما غاصت قدمها وغاص معها قلبها وقفت زمنا تسترد قلبها أولا وتنتشل قدمها بعد ذلك. وما كنت وما كان غيري، ونحن نطل عليها من اعلى القمة، نحسب انها بالغة ما تحتمل كل هـذا الجهد في سبيل بلوغه. لـكن الارادة القوية غالبة أبداً. و بارادتها تغلبت هذه السيدة على الهرم وضعفه ووقفت معنا في اعلى القمة تمتع طرفها بالمنظر الرهيب العجيب

ما كان أصغر هذه القمة حين كنا بعيدين عنها ننظر اليهـا من فوق السفين الذي جاء بنا حتى أبواب الشلال؛ وما أصغرنا نحن الآن فوقها! وقف هذا الجمع الحافل الحاشد من أشتات جوانب الارض في مصر وانكلترا وأمريكا وايطاليا وغيرها؛ حول بضـعة أحجار منثورة فوق رمال هذا الاكمة، فاذا هو من قلة الكم بما لا تلمحه عين من ظلوا فوق السفين. لـكنه مع قلة كمه صلة ما بين هـذه الأقطار الشاسعة التي يتكون العالم منها، وهو لذلك روح هـذا العالم الذي

نعيش فيه . فمنه يستمد العالم أدق ما في حياته وحركته . وهو لذلك صغير عظيم ، لكن عظمتـه ليست في أفراده ، بل هي في الروح الانسانية الخالدة التي تعظم على الزمان كل يوم بمـا ترث على الزمان من سلطان والتي تزداد عظمة بما تشتمله من الوجود في سلطانها وبما تذيبه في الوجود من نفسها .

واذا كنا صغاراً فوق الاكمة فماذا نكون فيما حولنـا والاكمة ليست منه شيئاً مذكوراً . مددنا الطرف نريد أن تجتلي غاية الشلال وأحجاره فأرتد دون هـذه الغاية وقد ملأته الآكام الحجرية النابتة في الماء رهبـة ، وأجلناه فيما حولنا من كثبان الرمل المهيـلة ، فأخذته واياها الى الافق في موج لألاء تحت أشعة الشمس المنحدرة الى المغرب ، وتخطينا به النهر فاذا بعض أشجار تحيي في هذا المحيط العابس جدة الابتسام ، ثم ثبت زمناً فوق أكمات الجرانيت النابتة في الماء تحيط بها قنواته الضيقة فما يكاد بعضها يتسع لمثل القارب الذي تسرب بنا خلال الشلال الى حيث ارتقينا القمة التي نطل الآن من فوقها. وبدت على الوجوه علائم الدهشة والاكبار لهذا المنظر العجيب، فساد الصمت جمعنا حيناً . ثم بدأ الجمع يتدرك القمـة عائداً الى القارب . يا عجباً ! ما اكثر ما يتغير منظر هذا السرب من الفيـلة الجاثمـة في الماء ، فكلما تدرك الهابط سفح القمـة بدت تحت ضياء

جديد فأخذت صورة غير صورتها : فبعض يزداد من بعض اقتراباً وبعض يزداد عن بعض بعداً ، وكذلك تتغير المحسوسات بتغير موقفنا منها ، فماذا يكون شأن مانسميه الحقائق في هذه النظريات من تصورات الذهن وأبنية الخيال !

وجلست أثناء هبوطي على حجر جاثم فوق الرمل وتلفت حولي فلم أر أحداً بالقرب مني أن كان كثيرون ما يزالون بأعلى القمة وكثيرون غيرهم وصلوا القارب . وجعلت أناجي نفسي : ماذا نكون من هذا الوجود العظيم ! وما حياتنا الثائرة القصيرة الى جانب هذا الخلد الساجي تبدو حكمته في سكينة ما حولنا وطمأنينته . واني لفي نجواي اذ مرت العجوز البادنة معتمدة على نوبيين وهي تلهث في نزولها كما كانت تلهث في صعودها . لكن ابتسامة على ثغرها كانت تعبر عما يدور في خاطرها من عظيم الغبطة لانتصارها على ضعف الشيوخة واقناعها بذلك نفسها أنها ما تزال قديرة على حمل عبء الحياة الثقيل اللذيذ .

وعدنا الى زورقنا فعاد يتسرب بنا بين صخور الشلال حتى السفينة التي ظلت في انتظارنا . وعلونا سطحها والشمس تتأهب للمغيب ثم انتقلنا منها الى بريتانيا التي سارت بنا قبيل العشاء .

وفي الأيام التي قضيناها بها حتى أسوان عادت الى خاطري

صورة الشلال وصورتنا فوق الربوة نجاهد، عبثا ،النحيط بكل حدوده رغم ما نزعم من الاحاطة حتى بحدود المجهول . لكن هذا العجز الذي يمسكنا ونحن وقوف يزول اذا تحركنا فاختزنا في خيالنا صور الشلال وغير الشلال جزءاً بعد جزء . وهذه الخيالات المختزنة هي قوتنا وذخرنا في الحياة وهي الميراث الذي تتعاقبه الاجيال فيزيد الانسانية صلة بالوجود وسلطانا عليه .

وبلغنا اسوان صبح الاربعاء وبلغنا القاهرة صبح الخميس ، فعدنا يهزنا برد الشتاء بعد عشرة أيام قضيناها في ربوع لا تعرف الشتاء .

مصر والسودان

لا أستطيع أن أختم هذا الكتاب من غير أن أتناول علاقات مصر والسودان بكلمة . وليست غايتي من التكلم عن هذه العلاقات غاية سياسية . فلعل القارىء قد أدرك من خلال الفصول السابقة أني لم أتأثر في أية مسألة من المسائل التي عرضت لها بأهواء السياسة أيًا كانت . وانما توخيت ما يمليه العدل وما تقضي به المصلحة الانسانية العليا التي لا تقف عند حدود مصر والسودان بل تتجاوزهما لما يمكن أن يستفيد العالم كله مما في هذه البلاد من خيرات . وانما غايتي أن أبين أن خير السودان وخير مصر وخير هذه المصلحة الانسانية العليا التى تستفيد منها انكلترا قبل أن تستفيد منها أية أمة أخرى انما يتحقق على وجه اكمل كلما ازدادت مصر والسودان إرتباطا سواء من الجهة الاجتماعية أو الجهة الاقتصادية أو الجهة السياسية وكلما تعاونتا من طريق هذه الرابطة الوثيقة في سبيل ترقية مصادر الانتاج المادية والمعنوية فيهما .

ولست أريد من أجل هذا البيان أن أدلل على أن مصر والسودان مرتبطان تاريخيًا بروابط قديمة تجعل من حق مصر أن تطالب بالسودان كما كانت فرنسا تطالب بالالزاس واللورين . ولست

أريد كذلك أن أقيم الحجة على ما أنفقته مصر فى السودان من مهج وأموال أو أن أرجع الى التاريخ لأي سبب من الأسباب . فالتدليل التاريخى في مسألة كعلاقة مصر بالسودان أشبه الاشياء بالمرافعات التي تحتاج الى قاض للفصل فيها . والقاضي في العلاقات التي تربط الدول بعضها ببعض هي المصلحة الحاضرة التي يراها أبناء هذا الجيل من غير حاجة للرجوع الى أسانيد التاريخ ووثائقه .

ومن نافلة القول ذكر الرابطة الطبيعية بين مصر والسودان وما توجبه هذه الرابطة من ضرورة توثيق الصلات بين هذين الجزأين من أجزاء وادي النيل . وحاجة مصر الى توثيق هذه الصلات وتوكيد تلك الروابط أوضح . فليس كمصر بلاد معلقة حياتها بنهر واحد . وليس يصدق على بلاد ما يصدق على مصر من أنها هبة النيل . ولولا النيل لكانت مصر بعض الصحراء الافريقية الكبرى ولوصلت هذه الصحراء ما بين المحيط الاطلانطيق والبحر الأحمر . لذلك كان هم المصريين في كل الأزمان بل كانت حياتهم معلقة على هذا النهر . فكل ما تتأثر به مياهه من ظروف الطبيعة أو من عمل الانسان تتأثر به مصر . وما نظن التاريخ يذكر أن المصريين ابتهلوا الى الله في ضراعة وخضوع كابتهالهم اليه ليتم على النيل فيضانه . ولا نظن المصريين فكروا في أمر من أمور حياتهم تفكيرهم في هذا الماء المخصب المحسن الذي يجيء اليهم من طريق السودان يحمله المجرى العظيم بين جروفه .

فاذا كان اكبر هم المصريين متجها الى الجنوب وكان اكثر تفكيرهم في الصلات التي تربطهم بجاراتهم النيلية وفي توكيد هذه الصلات وتوثيقها فليس ذلك منهم حبًا في الفتح أو اندفاعًا وراء شهوة الاستعمار التي يجري وراءها كثير من الأمم بل هو الحرص الطبيعي على الحياة حرصًا أصيلا في سليقة كل حي وفطرته .

على انه اذا كانت حاجة مصر الى توكيد الروابط بينها وبين السودان أوضح من حاجة السودان الى مثل هذا التوكيد لموقع السودان عند منابع النهر فليس ذلك معناه أن السودان أقل من حاجة مصر لتوثيق الصلات بينهما . ولئن كان السودان منبع الحياة المادية التي تفيض على مصر مع فيضان النيل فمصر هي منبع الحياة المعنوية التي تفيض على السودان مع فيض الحضارة أيا كان مصدره . وكما تحيط الصحاري بمصر فتقصر حياتها على ما يغذيها النيل به من مياهه كذلك تحيط الصحاري بالسودان وتفصله عن مصادر الحضارة . ولقد بالغت الطبيعة في ذلك حتى ليحسب الانسان حين ينظر الى خريطة النيل أن حوضه عالم مستقل فيه كل ما تحتاج اليه الحضارة من أدواتها وأسبابها . ولقد فتحت موانيء على البحر الأحمر لتصريف تجارة السودان ولجلب التجارة اليه . لكن هذه الموانيء لا تصلح ولن تصلح لتكون باب الحضارة والعمران . بل كانت الحضارة وكان العمران يهبطان الى السودان من طريق مصر اكثر مما يهبطان اليه

من أي طريق آخر. ولذلك كان السودان بأرجائه الفسيحة هو المهجر الطبيعي لمصر تحمل اليه من أسباب حضارة العالم ما يشركه بنصيب في هذه الحضارة.

وقد كان الغزو والفتح وسائل الحضارة في الماضي. فكانت الدول ذوات الحضارة القوية تغير على غيرها من الدول فتفيد من حضارتها وتفيدها من الحضارة القوية. ولذلك كثيراً ما اتصلت الحروب بين مصر والسودان لاستبقاء الصلات الطبيعية التي يجب أن يشعر السودانيون والمصريون جميعاً بمحاربة أسباب ضعفها لا بالمحاربة في سبيل وصلها. على أن تقدم العلم وتقريبه بين شعوب العالم المختلفة وتضييقه دائرة الأرض جعل الغزو والفتح منظوراً اليهما بعين المقت حتى من الاقوياء الذين كانوا يستفيدون منهما. وكلما ازداد العلم تقدماً وازدادت الشعوب بعضها من بعض قرباً وتمتنت الروابط العقلية والمعنوية وتحطمت الحدود والحواجز زادت أسباب التعارف والتفاهم وأصبحت وسائل العنف والبطش بين الجماعات منظوراً اليها بعين المقت والازدراء مثلها اليوم بين الأفراد والطوائف. ويومئذ تكون بين شعبين متجاورين أو بين شعب واحد يقيم في بقعة من بقاع الارض يسر العلم أسباب الرغد فيها شيئاً عجباً وأمراً نكراً. ويومئذ يحل التضامن بين الشعوب محل التنافس. ويكون بين الشعوب المتجاورة التي تصل الطبيعة بينها أقوى رباطا وأمتن

عقدة . ثم تكون كل الاسباب الصناعية الطارئة على هذا التضامن والمفسدة إياه موقوته مرهونة بالزوال .

لا مفر إذن من أن يكون هذا التضامن بين مصر والسودان على القواعد التي تقضي بها ظروف الحضارة في الوقت الحاضر . وأدوات هذا التضامن كثيرة أشرنا الى بعضها حين الكلام عن مشروعات الري الكبرى . فهذه المشروعات يجب أن لا تراعي فيها الا الاعتبارات الفنية التي تؤدي الى حجز اكبر مقدار يمكن حجزه من مياه النيل لانتفاع الاراضي الزراعية الواقعة على شاطئيه من أول مصر ذات الاولوية التاريخية في هذا الانتفاع الى آخر منابع النيل . كذلك يجب على مصر أن تكون المنبع الذي تجري منه اسباب الحضارة الى السودان . فليس الى السودان سبيل للحضارة غير هذا المنبع . ذلك لأن المصريين اكثر العناصر امتزاجا بالسودانيين منذ اجيال طويلة . ولئن كان هذا الامتزاج قد اقترن فى احيان كثيرة بعناصر سيئة من جانب أو من الجانب الآخر فانه خلق بين الشعبين من الاواصر ما ييسر التفاهم بينهما الى حد كبير . والحضارة اذا مرت بمصر كان يسيرا أن يسيغها السودانيون بسبب هـذه الاواصر . فأما اذا حملتها الى السودان عناصر أخرى ولو كانت من أمم اعلى من مصر في الحضارة كعبا فأنها لا تتأقلم في السودان بمثل السهولة التي تتأقلم بها حين تحملها العناصر المصرية . ولعل الاسباب التي ادت في الماضي الى

عدم نجاح مصر فى حمل هذا العبء الانساني في السودان أن الذين كانوا يقومون برئاسة المصريين هناك كانوا من عناصر غير مصرية، وأن المصريين الذين كانوا مرؤوسين لهؤلاء كانوا من طراز محتاج لاسباب الحضارة فلايستطيع أن يقدمها لغيره . واعتقد اعتقاداً كبيراً أن مصر تستطيع أن تعاون السودان في هذا المضمار معاونة جدية اذا وجد من المصريين ذوي المكانة والمقدرة من يتطوعون لهذا العمل من غير أية فكرة سياسية بل بدافع التضامن بين الشعبين وتحت تأثير الفكرة الانسانية السامية وحدها

اعلم أن اعتراضا عمليا له قيمته يقف في هذا السبيل . ذلك وجود الانكليز في السودان وقيامهم بالحكم فيه . وهو اعتراض صحيح إذا كان الانكليز يريدون حكم السودان لمجرد الحكم والاستعمار . وهذا مالا نعتقده . فللانكليز مصالح بريطانية يقتضونها من السودان أهمها القطن الذي يزرع فيه . ولعل المواصلات الامبراطورية بعض هذه المصالح كذلك . لكن الانكليز لا مصلحة لهم في اعاقة تقدم السودان وتحضيره . وكلما تقدمت الحضارة في السودان وكان أهله اقدر على الاستفادة من وسائل العلم كانوا اكثر انتاجا في سوق العالم العامة من جوانبها المختلفة . ولانكلترا في هذا مصلحة أي مصلحة . ولئن كانت الظروف السياسية قد قضت في الماضي أن تقف مصر وانكلترا في السودان موقف الخصومة فاعتقد أن الانكليز والمصريين

قدادركوا تمام الادراك سوء تلك السياسة وعقم نتائجها بالنسبة لانكلترا ولمصر وللسودان جميعاً. فمن الحكمة — وهذه هى الحال — أن يقدروا وجوب اتجاه السياسة في المستقبل الى غير ما كانت سياسة السودان الى اليوم

وليس نظام الحكم في السودان هو المشكلة العويصة في رأيي. واعتقد أن من الممكن التفاهم في هذه المسألة بين مصر وانكلترا على أن تكون السودان ومصر متحدتين بينهما مثل نظام ال federation. فيكون لكل في المسائل الداخلية حرية التنظيم والتشريع وترتبطان جميعاً في المسائل الخارجية والمسائل العامة باتفاق مقررة قواعده. وليس المقام هنا مقام تحديد أو تفصيل لهذا الاتحاد قبل قبول مبدئه. فاذا قبل هذا المبدأ كان وضع التفاصيل يسيراً. واحسب أن مثل هذا النظام في مرونته وقابليته للتحوير يستطيع أن يحقق غايات الاطراف المختلفة.

وقد يمكن اذا قبل مبدأ هذا الاتحاد أن يترك النظر في مصالح انكلترا وامتيازاتها في السودان الى حكومة السودان نفسها تحلها في حدود المسائل المتروكة بموجب نظام الاتحاد لتصرفها.

ويخيل الى أن حلا كهذا قد يكون من شأنه أن ينهي مسألة معلقة لا فائدة لاحد من تعليقها، وأن يحل الى جانب ذلك مسائل كثيرة كمشروعات الري الكبرى وكتحضير السودان وما الى ذلك

مما يفيد السودان ومصر على السواء من غير أن ينشأ عنه ضرر لأية مصلحة من المصالح .

واذا كان المؤتمر الامبراطوري البريطاني قد قبل مبدأ مساواة الممتلكات المستقلة مع انكلترا وأن يكون رباطها جميعاً ولاءها للتاج وذلك لمصلحة الامبراطورية البريطانية ولفائدة السلام في العالم ، فأن مثل هـذه الفكرة الحرة فكرة الاتحاد بين مصر والسودان قد تسهل الوصول الى حل مسألة السودان حلا موافقاً لمطلب مصر من غير مساس بما للدول من المصالح فيهما

ولهذا الحل مزايا يعود اكثرها على السودان كما أن لمصر منها فائدة لا تنكر . وهو في نفس الوقت يكفل لانكلترا أن تحصل من السودان على المصالح والامتيازات التي ترمي الى تحصيلها من غير أن تضطر لحمل عبء المسؤوليات المستقبلة التي تحملها اليوم فيه .

وأول مزايا هذا الحل أنه يحقق ما يريد المصريون والسودانيون من وحدة القطرين ، من غير أن يجنى ذلك على عزة أي منهما ، ومن غير أن يعوق تقدمه متأثراً بعوائده وعقائده واعتباراته القومية الخاصة. وهو مع ذلك لا يجد من الاعتراض عليه ما يجده الاندماج التام بين القطرين . فالذين يريدون هـذا الاندماج يبنونه على التاريخ وعلى وحدة الجنس والعادات في مصر والسودان . وخصوم الاندماج

ينكرون وحدة الجنس ويذهبون الى أن السودانيين غير المصريين والى أن طوائف العرب في مصر وفي السودان لا تكون سواد الشعب في أي من البلدين وإنما هي أقليات طارئة جاءت في عصور الفتح الاخيرة . وهم ينكرون كذلك وحدة العادات ويذهبون الى أن تطور الحضارة في مصر غير من عاداتها القديمة حتى لو ان شيئاً من الوحدة كان موجوداً في الماضي بين عادات المصريين والسودانيين فقد انقطع اليوم . وسواء أكان هذا الاعتراض صحيحاً أم باطلا فهو لا يغير من العلاقات الطبيعية التي بين القطرين والتى أشرت اليها من قبل . وهو لذلك اذا أمكن جدلاً أن ينهض عائقاً في سبيل الاندماج فلا يمكن أن ينهض عائقاً في سبيل الوحدة

فالاتحاد السويسري والولايات الامريكية المتحدة ليس بين الولايات التي يتكون منها أى من هذين الاتحادين مثل ما بين مصر والسودان من شبه أو علاقة. انما تصل هذه الولايات روابط المصلحة البحتة. فأما ما سوى ذلك فيختلف بين ولاية وولاية اختلافاً بيناً . فسويسرا على صغرها يتكلم أهلها ثلاث لغات مختلفة هي الفرنسية والالمانية والايطالية ، ويدين أهلها بمذاهب مختلفة، ولا تجمع بينهم الا طبيعة بلادهم الجبلية من ناحية ومصالح الدول المختلفة المحيطة بهم من ناحية أخرى . والولايات الامريكية المتحدة تجمع من مختلف الامم واللغات والالوان . لكن رابطة الجوار والمصلحة تسمو فوق كل

اعتبار آخر وتجعل من الاتحاد الامريكي قوة قومية وعالمية منقطعة النظير

ثم ان اعتراضاً آخر يقيمه جماعة من المصريين أنفسهم يجعل الاتحاد وسيلة صالحة . ذلك أن نظام القبائل والعائلات قد زال من مصر ولم تبق منه الا آثار لا قوة لها ولا سلطان وحل محله النظام الديمقراطي الصرف الذي يجعل الحياة الدستورية هي الحياة الوحيدة الصالحة كنظام للحكم في مصر . فأما في السودان فمايزال نظام القبائل والعائلات هو النظام الاساسي الذى تقوم عليه الجماعة السودانية . ولئن كانت التطورات العالمية المقبلة قد تدفع السودان كما دفعت مصر نحو النظام الديمقراطي فان هذا التطور بحاجة الى زمن غير قليل. والى أن ينقضي الزمن اللازم لتمام هذا التطور فمن العسير ، بل من التعسف ، إخضاع السودان للنظام الذي تخضع مصر اليوم له .

وثمت اعتبار آخر يجعلنا نفضل نظام الاتحاد بين مصر والسودان على نظام الاندماج . ذلك أن مصر متهمة في سياستها بازاء السودان بأنها سياسة استعمار لا سياسة تحرير . وهذه التهمة تروجها ألسنة السوء كما روجت من قبل تهمة حرص مصر على الاستئثار بمياه النيل. ولا تكتفى هذه الالسن باتهام المصريين بالميل للاستعمار بل تذكر السودانيين بأيام قديمة كان نواب حاكم مصر في السودان يسلكون مسلك العسف والاستبداد ويضربون هذا المسلك نظاماً لحكم المصريين . ومع بطلان هذه التهمة أمام التاريخ والحق لأن هؤلاء

الولاة الذين كانوا يوفدون الى السودان لم يكونوا مصريين وانما كانوا من جنس الحكام الذين يحكمون مصر نفسها ، فانا نعتقد أن المصريين أحرص من أن يتهموا بالميل للاستعمار وانهم يريدون للسودان التقدم الحقيقي نحو الحرية . وذلك يتحقق تماما تحت نظام الاتحاد . فيومئذ يكون المصريون الذين يذهبون للخدمة في السودان إنما يذهبون بدافع محبة السودان والحرص على رقيه لا بدافع استعماره وحكمه . ويومئذ يجد السودانيون الوسيلة للرقي واتحقيق كل معاني العزة القومية

ولهذا الحل مزايا يعود اكثرها على السودانيين انفسهم . فهو يطمئن جميع المصريين تمام الطمأنينة على مشروعات الري الكبرى ويزيل من نفوسهم كل خوف من أن تكون هذه المشروعات يوما من الأيام وسيلة لاكراههم على قبول ما لا يقبلونه اختياراً أو سبباً لارغام عزتهم واذلالهم . ويومئذ تتسع الاراضي المصرية القابلة للاستغلال وتضعف في نفوس المصريين فكرة الهجرة الى زمن طويل مقبل . وإذ كانت النفس الانسانية غير مولعة بالانتقال الا بدافع المصلحة وكان الاكثرون لا ينظرون الا لمصالحهم الخاصة القريبة فان المصريين الذين يذهبون في هذه الظروف الى السودان سيذهبون تحركهم عواطف انسانية سامية تريد أن تمتن صلة الحضارة بين السودان وكافة مواطن الحضارة التي يتعذر انتقالها الى السودان عن طريق غير مصر كما سبق القول . وما نشك في أن

هؤلاء سيعاونون على سرعة رقى السودان في مضمار التقدم الانساني ما دامت ادوات الحضارة المادية تشاد فيه فتعاون على تزايد سكانه وعلى أخذ ابنائه بنصيب في المعارف اللازمة لزيادة الرغد والرخاء في ارجائه .

ونعتقد أن السودانيين يشعرون بشعورنا هذا، وأن الانكليز الذين أقاموا بالسودان منذ افتتاحه وتعاونوا مع المصريين في تنظيمه يشعرون بهذا الشعور كذلك . ومهما كانت احداث السياسة قد دعت في بعض الظروف الى اعلان سيئات عن المصريين واعمالهم في السودان فالحقيقة التي لا ريب فيها أن المصريين كانوا دائما اشد العناصر صلة بالسودانيين واكثرها عطفاً عليهم، وأنهم لم يكونوا في السودان تحركهم عاطفة الانانية التي تحرك غيرهم من النازلين اليوم فيه ، والتي تدفع هؤلاء الى أن يقصروا نظرهم على المصلحة الشخصية والحرص على اقتناء الثروة .

وهذا الحل ادنى الى المصلحة البريطانية من نظام السودان الحاضر. فهو حل يرضى عزة السودانيين و يتفق وكرامتهم القومية. وهو لذلك يبعد السودان عن اسباب القلق التي تكلف الحكومة البريطانية مسؤوليات الامن والنظام في السودان وما يترتب على هذه المسئوليات من نفقات يحتملها دافع الضرائب الانكليزي من غير أن يكون لاحتماله إياها ضرورة ملجئة . ثم هو حل يتفق وتطور العالم في سبيل التضامن السلمى

المنتج لخير الجميع . والذي اصبح يحل رويداً رويداً محل القوة والاكراه والاستعمار . وهو من جهة ثالثة اقرار لنظام مرن لا يتنافى مع ما تريده انكلترا من تقدم زراعة القطن في السودان ومن نجاح مشروع الجزيرة نجاحاً باهراً . وهو فوق ذلك يعين على هذا النجاح ويجعله اقرب منالا وأقل نفقات بما يطوع للمصريين من الاخذ فيه بيد السودانيين ومعاونتهم إياهم معاونة هي لا شك خير واجدى من معاونة الفلاتة وغير الفلاتة من المزارعين الطارئين . ولئن كان المصريون قد ترددوا في هذه المعاونة لما دعتهم انكلترا اليها من طريق شركة الجزيرة في سنة ١٩١٣ فذلك لأن ظروف السياسة كانت يومئذ مبعثاً للخوف والقلق . بينا اقرار نظام كنظام الاتحاد بين مصر والسودان وما يترتب على هذا النظام من الطمأنينة لنفوس المصريين يزيل كل اسباب الخوف والقلق .

وثمت اعتبار آخر لا يمكن أن يغيب عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها . ذلك أن سواد المصريين لا يمكن أن يهدأ لهم بال اذا رأوا السودان منفصلا عنهم . وهم سيذكرون دائماً كلمة وزيرهم شريف باشا : « اذا تركنا السودان فالسودان لن يتركنا » ، وكلمة المستشار الانكليزي لوزارة الاشغال المصرية : « السودان الزم لمصر من الاسكندرية » . واذا صح أن مرت فترات من الوقت هدأت فيها عواصف السياسة لسبب من الاسباب واضطر المصريون للرضى عن

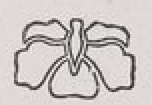
حالهم سواء لعدم ملاءمة الوقت اولأن القادة الظاهرين منهم قدشبعت اطماعهم بما نالوا من المناصب والجاه والمصالح لانفسهم ولذويهم فان هذه الفترات لا يمكن أن تدوم في حياة الأمم مادام ثمت مايدعو الى تزعزع الامور فيها. كذلك لايمكن أن يغيب عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها أن السودان ومصر بينهما فضلا عن رابطة النيل الطبيعية رابطة اللغة والعقيدة والجوار. وهذه روابط لا وجود لها عند أي من الدول الاخرى المتاخمة للسودان. وطبيعي مع تقدم الرقى والحضارة في السودان أن تزداد عقدة هذه الروابط متانة وأن ينظر السودان لمصر بمثل العطف الذي تنظر مصر به للسودان. ويومئذ لا يترك السودان مصر إذا هى تركته. ولا يمكن أن يغيب عن فطنة السياسة البريطانية وبعد نظرها أخيرا أن فترات القلق اصلح الفترات للشعوذة السياسية وابعدها عن أن تكون الظرف الملائم للاتفاق الودى المعقول. فاذا كان ذلك كله صحيحاً كان الوقت الحاضر انسب الاوقات للتفكير في اتحاد مصر والسودان على المبادىء السابق ذكرها. ذلك بأنه وقت سكينة وهدوء فكل اتفاق يتم فيه يتم بعد روية وتفكير ويكون منبعثاً عن اعتقاد صحيح بصلاحه.

ولقد اكدت لي اقامتي القصيرة بالسودان صحة هذا الرأي الذي عرضت. فكما أن السودانيين بحاجة الى أن يقوموا بالعمل لتتطور نظمهم الحاضرة في اتجاه يتفق وسيرة العالم الحاضرة — هـذه

السيرة التي لا مفر من وصولها الى ايجاد مشابهة كبيرة بين نظم الحكم في مختلف دول العالم بسبب ما تقرب المواصلات الدول بعضها من بعض – فهم بحاجة في هذا السبيل الى معونة صادقة مخلصة ليست لها أية غاية سياسية . وإذا كان وجود الانكليز للاشراف على تقدم زراعة القطن في سهل الجزيرة من شأنه أن يعطيهم في ذلك مثلا صالحاً فأن الفارق بينهم وبين الانكليز في اللغة والجنس والعادات والدين يجعلهم بحاجة الى المصري القريب منهم في ذلك كله والذي درس الانكليز عن قرب ، والذي لا يرجو بعد وضع قواعد الاتحاد بين مصر والسودان ، الا أن يمهد السبيل لبقاء هذا الاتحاد وثيقاً متيناً بعيداً عن العثرات والاضطرابات .

ولعل هذا الرأي يروق الاطراف المختلفة ذوات المصلحة فيه .

ولعل الطبعة الثانية لهذا الكتاب – اذا قدر له أن يطبع طبعة ثانية – تضع الى جانب هذا الفصل الاخير من فصوله صورة الاتفاق الذي يتم تأييداً لهذا الرأي



خاتمة

ارجو أن اكون قد وفقت في الصحف القليلة التي يحتويها هذا الكتاب الى نقل صورة صحيحة مما رأيت أثناء العشرة الايام التي قضيت بالسودان، كما أرجو أن تكون الآراء التى سنحت لي في مختلف الشؤون متفقة وماتمليه الرغائب الانسانية السامية التي جاهدت للدعوة الى تحقيقها غيرمتأثر بأى هوى من اهواء السياسة . ولهذه المناسبة أرى واجباً علي أن اصرح أن هذه الآراء شخصية بحتة لا تعبر الا عماجال بخاطري كفرد من افراد المصريين . فهي لا تعبر عن وجهة نظر جماعة من الجماعات أو حزب من الاحزاب . بل هي قد تلقى من كثيرين في مصر وفي السودان وفي انكلترا معارضة شديدة، كما ارجو أن تلقى من كثيرين كذلك في مصر وفي السودان وفي انكلترا تعضيداً لها وتأييداً وانما دفعني الى ابدائها بالصراحة التي أبديتها بها حرصي على تقدم السودان ورفاهيته وعلى طمأنينة مصر ومصالح انكلترا وسلام العالم، وعلى الحق الذي يجب أن يكون له السؤدد دائما في النهاية .

وكنت ارجو أن يظهر هذا الكتاب من أشهر ماضيه . فقد بدىء في طبعه في شهر مارس سنة ١٩٢٦ . لكن ظروفاً طرأت على

منذ شهر ابريل حالت بيني و بين الاستمرار في كتابة الفصول اللاحقة لفصل أم درمان . ولم اتمكن من العود لتحرير سائر الفصول وتقديمها للطبع الا منذ نوفمبر الماضي

ومنذ نوفمبر تراكم على من شؤون الحيـاة ما جعلني اسير ببطء شديد . على أن هذا البطء كانت له مزايا الأناة في تقدير الوقائع والآراء . وذلك ما يجعلني غير آسف عليه

القاهرة في ٣٠ يناير سنة ١٩٢٧

فهرس

ص

٥ خواطر حمار (مصور للاولاد والرجال) ترجمة حسين الجمل

١٠ مسارح الأذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة) تأليف خليل بيدس

١٠ الحضارة المصرية القديمة (لغوستاف لوبون) ترجمة صادق رستم

٨ مقدمة الحضارات الاولى « « « « «

٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات (مصوّر) تأليف الدكتور فخري

٢٥ « « « « مجلد بقماش

٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها وطرق الوقاية منها « «

١٠ رسائل غرام جديدة (مزين بصور) تأليف سليم عبد الاحد

١٠ الغربال ، بقلم مخائيل نعيمه عضو الرابطة القلمية بامريكا

٢٥ علم الاجتماع (الجزء الاول في حياة الهيئة الاجتماعية) تأليف

٢٥ « « (الجزء الثاني فى تطور الهيئة الاجتماعية) نقولا حداد

١٠ حصاد الهشيم (مصور) تأليف الاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني

١٠ مختارات سلامه موسى (تأليف الكاتب الاجتماعي الشهير)

١٠ نظرية التطور واصل الانسان تأليف الاستاذ سلامه موسى

١٥ أسرار الحياة الزوجية ترجمة نقولا حداد

١٥ الحب والزواج تأليف « «

١٥ في أوقات الفراغ تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك

٣ كتاب الحقوق الوطنية تأليف فرنسيس مخائيل

٢٠ روح الاشتراكية تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر

ص		
١٠	الآراء والمعتقدات تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر	
٨	رواية الانتقام العذب	ترجمة اسعد خليل داغره
١٠	فاتنة المهدي، أو استعادة السودان (نشرت تباعاً في الاهرام)	
٢٠	رواية باردليان (٣ اجزاء كبيرة)	ترجمة طانيوس عبد
٢٠	« الاميرة فوستا (جزآن كبيران)	» » »
١٦	« كابيتان (جزآن كبيران)	» » »
١٠	« فارس الملك	» » »
١٦	« الساحر العظيم	» » »
٥	« روكامبول (عن الجزء الواحد)	» » »
١٥	« فلمبرج (جزآن كبيران)	» » »
٦	« النفس الحائرة ، تأليف فريد افندي حبيش	
١٥	الدنيا في اميركا	تأليف الاستاذ امير بقطر
١٢	المراجعات	تأليف الاستاذ عباس محمود العقاد
٢٠ـ٢٥	اناتول فرانس في مباذله، تأليف سعادة الامير شكيب ارسلان	
٢٠	ماقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء تأليف اسماعيل بك مظهر	
٨	التعليم والصحة تأليف الدكتور محمد بك عبد الحميد	
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها بقلم الاستاذ عبد الله حسين	
٥	مركز المرأة ترجمة الاستاذ سليم عقاد	
١٠	عشرة أيام في السودان ، تأليف الدكتور محمد حسين هيكل بك	

أن يصرح برأيه فى الدين وفى الاشتراكية وفي المرأة ، وفى مثل هذه الشئون الاجتماعية ، غير متعمد في كل ما يكتبه اظهار براعة أو التباهي بمهارة ، وانما غايته التي لا يحيد عنها هي فائدة القارىء وليست هذه بالميزه القليلة القيمة في وقت نرى فيه عدداً غير قليل من كتابنا لا يبغي من وراء كتابته الا أن يقول عنه الناس كما يقولون عن البهلوان « ما أبرعه ! » فى حين كان يجب أن يقولوا « ما أنفعه »

ولسنا نشك فى أننا نخدم جميع قراء العربية بجمع هذه المقالات النفيسة ، وغيرها مما لم ينشر للآن ، حتى يتيسر للجيل الجديد قراءتها والانتفاع بها دون أن يحتاج الى الكد فى البحث عنها فى متفرق المجلات والصحف — ثمنه ١٠ قروش مصرية

